رسائل على الرمال

سليمان السرور

رسائل على الرمال

وقصص أخرى

٢٠١٩

المكتبة العامة رهط
المركز الجماهيري رهط

رسائل على الرمال

قصص وخواطر قصيرة تمثّل حياة البادية

سليمان السرور

الطبعة الأولى

كانون ثاني ٢٠١٩م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

صَدَرَ عن: المكتبة العامة والمركز الجماهيري في رهط

طباعة: أ دار الهدى ع. زحالقة

خليوي: ٠٥٠-٥٢٥٢٩١٧ هاتف: ٠٤-٦٣٥٣٤٣٩

خليوي: ٠٥٠-٥٧٠٨٨٣٥

Email: daralhoda.1@gmail.com

إهـــــــــــداء

✍ – إلى الذين عاصروا حياة البادية أو سمعوا عنها من آبائهم وأجدادهم.

✍ – إلى كل الذين يتشوّقون لنمط الحياة البسيط المليء بالمحبّة والاحترام.

✍ – إلى المكتبة العامة والمركز الجماهيري ومديره السيد فؤاد الزيادنة.

✍ – إلى كل هؤلاء، وإليك أنتَ عزيزي القارئ أُهدي هذا الكتاب.

سليمان السرور

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

هذا هو الإصدار الأول من كتاباتي المتواضعة الذي أضعه بين أيديكم أعزائي القراء، وهو عبارةٌ عن مجموعةٍ من القصصِ القصيرةِ المستوحاةِ من حياةِ البادية وأهلِهَا، تناولتُ فيها الكثيرَ مِنَ الأحداثِ الاجتماعيةِ وأنماطِ المعيشة، والتراث والعلاقات الاجتماعية بين الناس في البادية.

وربما جاء هذا الكتاب بأسلوبه المتفرِّد، ليُقدِّمَ للجيل الجديد من أبنائنا صورةً مُبَسَّطةً وواضحةً عن نمط الحياة وظروف المعيشة والعادات المتوارثة التي كان يعيشها جيلُ الآباء والأجداد، ممزوجاً بكلمات ومفردات أخذت طريقها إلى الاختفاء والزوال بسبب تَغَيُّرِ ظروفِ الناسِ في المسكن والملبس والمأكل والمشرب، وفي الزمان والمكان.

حياةٌ كانت بعفويتها وبساطتها تحتوي على الراحة النفسية وهدوء البال، الأمر الذي نفتقده في هذا الزمان الذي يلهث كالمجنون ولا يستقِرّ على حال.

ومهما يكن من أمر فإننا نحاول أن نتجاهل هذا التسارع الزمني، وأن نعيش حياتنا الخاصة ببساطتها وجمالها وهدوئها وطبيعتها التي ترتاح لها أنفسُنا، وربما جاءت قصص هذا الكتاب لتصوِّرَ تَمَسُّكِنَا بعراقة ماضينا، وبساطة حياتنا، لنظلّ قريبين منها ولا نبعد عنها كثيراً.

سليمان السرور

نايفة في المدرسة

(الجزء الأول)

بعدَ تفكيرٍ عميقٍ وبعدَ أن سمع قصّةً وردَ فيها أنّ ابنةً أنقذتْ والدها من موتٍ مُحقَقٍ لأنّها كانت تُجيدُ القراءة قرّر "عيد" إرسال ابنته "نايفة" إلى المدرسة مع أخويها، وفي عُجالةٍ ودونَ تجهيزٍ كبير خاطَتْ لها أمها فُستانًا من فساتينها وفصّلَتْهُ على مقاسها الصّغير وأرسلتها إلى المدرسة بعد مرور أكثر من أسبوع على بداية العام الدّراسيّ.

بَدَتْ نايفة بفُستانها المُلَوّن في يومها الأوّل كَوَرْدَةٍ ربيعيّةٍ أزهرَتْ فجأةً في خريف المدرسة البائس حيثُ أنّ الإناث قلّة قليلة في ذلك الزّمن ووجدت نفسها بين اثنتين من زميلاتها في غرفةٍ تعجّ بالأولاد يتصارخون ويتناوشون بالأيدي والمساطر وجلست في هدوءٍ مليءٍ بالخوف والتّرقّب والرّهبة وهي تُمسك حقيبتها بكُلّ قوّتها مُواريَةً بذلك جانبها البالي والمُمزّق حيثُ أنّ هذه الحقيبة ورثتها عن أخيها الأكبر سِنًا منها.

لم يكن لديها الوقت الكافي لمحاولة فَهم ما يدور ولا يوجد من يُطمئنها أنّ هذا هو الوضع العاديّ للمدرسة وهكذا هو اليوم الأوّل،

ويبـدأ الـدّرس الأوّل وهـي لا تعلـم مـاذا تفعـل حـين رأت الجميـع يُخرجُون دفاترهم وفيها الوظائف ومَـرَّ وقـتٌ طويـلٌ قبـل أن يلاحـظ المعلّم "نايفة"، وحين استفسر منهـا لم تنـبس ببنـتِ شـفة فيمـا كُـل التّلاميذ أجابوا بصوتٍ واحد:

– "هذي جديدة يا أستاذ"، ممّا زاد من إحراجها أكثر.

وتبدأ نايفة يومها الأوّل وتُنهيهِ وهـي غـير مـصدّقةٍ أنّهـا سـتتعلّم القـراءة والكتابـة بخـلاف بنـات أعمامهـا وأخوالهـا وبقيّـة بنـات العشيرة، وتَمُرُّ عدّة أيّامٍ ونايفـة تـتعلّم كتابـة الأحـرف بالفعـل ومـن لهفتها كانـت تحـلّ الواجبـات في الطريـق أثنـاء عودتهـا إلى البيـت حيث كانت تجلس لبضع دقائق تكتب وتنـسخ إلى أن ينـادوا عليهـا أخوتها مـن بعيـد فتتـبعهم، وحـين تـصل إلى البيـت تحكـي لأمّهـا بالتّفصيل عن كُل شـيء إلى أن تمـلّ الأمّ مـن كثـرة كلامهـا، فتأخـذ نايفة بقايا من قطع الفحم الأسود وتتوَجّهُ إلى "حوش الغنم" لتُعيد مـا تَعلّمْتهُ اليوم ولكـن بِـدَوْر المعلـم هـذه المـرّة ولـيس التّلميـذة بالفُـستان المُلَوّن، فتكتبُ على ألْواح الخشب وصفائح "الزّينكو" وتنهـر وتمـسح وتصرخ وتُطري وتوَبّخ حتّى تتعـب فتعـود لحقيبتهـا ودفاترهـا إلى أن يحلّ المساء.

وهكذا أتمّت نايفة الصّف الأوّل فالثّاني وبرعَتْ بـذكائها وتفوّقهـا

على الجميع وعلى هذا قرّر مُربّـي الـصّف أنّهـا تـستحق التّرفيـع إلى الرّابع مباشرةً.

(الجزء الثّاني)

لم تعُد "نايفة" تلك الطّفلة الخَجول الخائفة القادمة من عالَمٍ مليءٍ بالخَوف من الغريب ولم يعُد يُربكها التّرقّب والحذَر من كل شيء ولم يعُد يخيفها الظُّهـور أمـام المَـلأ بعـد أن اكتـسبت الثّقـة مـن تفوّقهـا الدّراسيّ وتشجّعت كثيرًا بفضل ذكائها ودلالهـا عنـد المعلّمـين لأنّهـا "الشّاطرة" وها هي اليوم في الصّفِّ الرّابع أكبر من أبناء وبنات جيلها عقلاً ووعيًا وثقافةً ومعرفة، وما زالـت تـنهش الكُتـب قـراءَةً وتطـالعُ الكثير من مناهج أخوتها الكبار فتقرأ وتستفيد وتُفاجِئ مُعلّميهـا بقـوّة ذكائها مرّة بعد مـرّة، وأسـئلتها الدّائمـة في أوّل حـديثها عـن أشـياء أكبر من مستواها.

يكـبر عقـل نايفـة وتـزداد علمًـا وتعلّمـاً وكـذلك تـزداد عليهـا المسؤوليّات والواجبـات، وبحُكـم نمـط الحيـاة في الباديـة، فالمعيـشةُ مشتركةٌ بين جميع أفـراد الأسـرة ولكُـلٍّ واجباتـه المنزليّـة، فـالأولاد ينشغلون برعاية الأغنام بعد عودتهم من المدرسـة ومـساعدة أبـيهم في

دِراسة القَشِّ وأعمال أخرى كثيرة، أمّا نايفة فكانت تساعد أمّها في كافّة الأعمال المنزلية ممّا أخذ قسمًا غير قليل من وقتها لمراجعة دروسها والوظائف البيتيّة وكانت تستغلّ فترة "التّعليلة" على ضوء فانوس "الكاز" لتقرأ وتكمل الواجبات، ويحدث أيضًا أن تعدّ بعض الوظائف في الصباح وخاصّةً في الشّتاء عندما يُطفَأ الفانوس باكرًا ويخلد الجميع للنّوم، وليالٍ أخرى حين ينفد "الكاز" أو تنكسر زجاجة الفانوس ولا يبقى إلا بصيص الجمر المُتّقد.

عِلَمَ الأخُ الأكبر ببراعتها في الحساب واللّغات الأخرى فعقَدَ معها صفقةً أن يترك لها حُريّة تصفُّح كُتبه بشرط أن تحلّ له الوظائف فرضيت نايفة دون مناقشة بذلك وبين المُتعة والإجبار اكتسبت المزيد من العِلم زيادةً على تفوّقها الدّراسيّ ولاحظ معلّمها أنّ اهتماماتها باللّغات غير العربيّة كان أشدّ من المعتاد لأبناء مرحلتها، كاللّغة العبرية والانجليزيّة.

وتمرّ الأيّام والشهور كالبرق وينقضي العام الدّراسي ويبدأ آخر وتواصلُ نايفة تفوّقها في الصّف الخامس والسّادس أيضًا، وكان أبوها حين يأتي من المدينة بأوراق ورسائل (مكاتيب) يستعين بها لتقرأ له الأسماء كي يستطيع توزيعها على أصحابها من أبناء العشيرة.

وفي الإجازة الصّيفية بعد موسم الحصاد يرحل عيد إلى مكانٍ آخر

(ديار المَشتى) وهو مكانٌ عادةً ما يكون بين الجبال وفي مأمنٍ من الرياح والسيول ليقضي فيه فصل الشّتاء إلى منتصف الربيع ثُمّ يعود إلى (ديار القيظ) وهذا الانتقال جعل الوصول إلى المدرسة شبه مستحيل من ناحية زمنيّة وما كان هذا القرار من "عيد" إلا بعد أن ترك ابنه الأكبر الدراسة في بداية الصّف التاسع أما الأصغر منهُ فقد بقي عند أخواله لِيُتِمَّ الصّف الثامن ريثما تعود العائلة إلى مكانها.

اسودّت الدّنيا في وجه نايفة وندبت حظّها على هذه المفاجأة وعلى قلّة الحيلة وحين بكت أمام أمّها قالت لها إنّها لم تعُد صغيرة لتذهب إلى المدرسة وعلى قول أبيها إنّها (بتْفُكّ الخط) وهذا هدفٌ لم تبلغه الكثيرات من (بنات العرب) حتّى بنت شيخ العشيرة التي لم تكمل الصّف الرّابع، ويهبُّ لنجدتها الأخ الأكبر ويُبدي استعداده لتوصيلها على الحمار كل يوم، وكانت إجابة الأب الحاسمة من سيرعى الغَنم حتى تعود؟ هي قضت على الأمل الضّعيف لدى نايفة بالعودة لمقعدها خلف الطاولة الأولى.

وتمضي الأيّام وينقضي الشّتاء وفي أواخره يُصابُ الأب بمرضٍ ...

(الجزء الثالث)

وتمضي الأيّام وينقضي الشّتاء وفي أواخره يُـصابُ الأب بمـرضٍ لم ينجُ منه فيتوفّاهُ الله، وترحل العائلة الحزينة على الفور ليكونَ العزاءُ في مضارب العشيرة عند أقـارب وأعمـام نايفـة بعـد أن غـاب المُعيـل والمسؤول ولا يجوز أن تبقى العائلة لوحدها.

هذا الحدث الكبير في حياة نايفة هـزّ كيانهـا أكثـر مـن أيّ أحـد آخر، أو هكذا شعرت وأدركت أنّها أمام مصاعب كبيرة الآن وهي في زهرة صباها ولم تفهم حتى الآن من سيحلّ محل الوالد أو مـن الـذي سيملأ الفراغ العظيم الذي تركه في حياتها، أمّا بخـصوص الـتّفكير في العودة للمدرسة فقد أقنعت نفسها بعدم الالتفات له.

وجد الأخُ البِكرُ "حسّان" نفسه المسؤول الأوّل في البيـت وهـو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، والأمّ في همّها كأرملةٍ خُداج لا تدري ما مصيرها بعد انقضاء العِدّة ولكن مع ذلك حاولت القيام بالكثير مـن الأعمال لتُواصِل الحفاظ على اسـتمرار الحيـاة قـد المـستطاع في بيتهـا وتَركة زوجها.

تمضي عدة شهورٍ لتكتمل السّنة وتستغلّ نايفة علاقتها الطيّبة مع أخيها حسّان فتتوسّل إليه أن تعود للمدرسة التي ستبدأ عمّـا قريـب

وهي تعرف معارضة أمّها لهذا الأمر لما فيه من إثارة لمشاكل قد تحصل مع أعمامها بصفتهم أهلها بعد موت أخيهم "عيد"، لم يرفض حسان الأمر ولكنّه وعدها ببذل ما يستطيع كي يتمّ لها ذلك، وفي المساء عرض الأمر على أمّهِ فأبدت معارضتها الشّديدة بحجّة أن "البنت كبيرة" ولا يجوز أن تذهب للمدرسة ويكفيها ما تعلّمت وأيضًا أنّها لا تريد أن يتدخّل أعمامها في الموضوع فتبدأ المشاكل.

ومع هذا كُلّه ما زال الأمل يُراود نايفة في أحلامها الورديّة أن تعود إلى المدرسة بالرغم من معارضة أمّها حتّى الآن، ولكنّها عزّزت أملها بتأييد حسّان الذي أثبت رجولته ومقدرته على تحمّل كافّة المسؤوليات منذ وفاة أبيه وخاصّةً حين باع بعض الخِراف بسعرٍ لم يحلم به أعمامه حين عرضوا سعراً زهيدًا مقابلها، فلمعَ صيتهُ كتاجرٍ مبتدئ غير سهل، وبهذا وجد نفسهُ يشُقّ طريقهُ بخطىً ثابتة ولهُ كلمتهُ لدى أعمامه.

لم يستشِر حسّان أحدًا وفي يومٍ عاد وهو يحمل كل اللوازم المدرسية لأخيه الصغير ولنايفة أيضًا وبهذا وضع أمّهُ أمام الأمر الواقع وظلّ الأمر شبه سرّيٍّ بين العائلة إلى تبدأ المدرسة ويروا ردّة الفعل عند الأقارب، وكان لنايفة ما أرادت فلم تنَم ليلتها وهي تستذكر أسماء زملائها وتشعرُ برائحة الكُتب والدفاتر الجديدة والملابس

وهمسات صديقاتها عندما كُنَّ يقتسمِنَ "العِلكة" ويتبادَلْنَ بالأقلام والأساور وكل ما هو جميل في ذاكرتها.

وفي الصّباح تتجهّز نايفة على أحرّ من الجَمر وتنطلق نحو المدرسة مع أخيها فتصلها في لهفة المشتاق، وتقف في السّاحة كالغريبة العائدة إلى وطنٍ تعرفهُ ولا يعرفها فالسنة الدراسية يتبدّل فيها الكثير ويغادرها الكثير والزملاء كأنهم كبروا قبل أوانهم وقد نَسوها وبدت كأنّها شُعلة انطفأت في ليلةٍ ظلماء، عرفت بعض زملائها ولكنهم لم يكترثوا لوجودها، يا لها من نكسةٍ غير متوقّعه واستقبال خالَفَ كل توقّعات براءتها أو هكذا ظنّت أنّها ما زالت في أوج ازدهارها كما كانت من قبل أن تترك المدرسة.

لم تترك لنفسها أن تشعر بالهزيمة النّفسية وحاوَلت تجاهُل التجاهل الذي صدمها منذ اللحظة الأولى فأخذت تبحثُ عن أي شيء من شأنه أن ينقذ الموقف ويُثبت أنّ "نايفة في المدرسة" من جديد، وجاء الفرَج حين رأت معلّمها القديم فعرفها على الفور وسلّم عليها وبدأ يكيل عليها الأسئلة والترحيب، فشعرت نايفة أنّ الحياة دبّت فيها من جديد وابتسمت ابتسامةً غابت عن شفتيها عاماً وبعض العام.

بدأت نايفة عامها الدّراسي في الصف السابع وهذا يعني زملاء

جدد ومعلم آخر ومثابرة من جديد لتعود إلى ما كانت عليه، وشعرت بالنّكسة بل بالخيبة الكبيرة ولكن لا بأس فالمهمّ عندها هو أن تُكمل.

وتمضي الأيّام ويحدث ما لم يتوقّعهُ أحد سوى الأمّ وحدها، وهو أمرٌ لا يغيب عن وجدان المرأة الأرملة الشابّة عادةً بغضّ النظر عن أولادها وحياتها المعيشية وبيتها وهو أمرٌ يفرضهُ أهلها من الدرجة الأولى – أي أخوال الأولاد – وعليه: على الأرملة أن تعود إلى أهلها أو تتزوّج من جديد أما بقاؤها بلا رجل في بيتها الأول فالأمر غير مقبول في التقاليد والعادات وأيضًا في هذه الحالة الأولاد سيتبعون أصل الأب وتنتقل الولاية عليهم للأعمام وليس للأم وأهلها، وهذا ينطبق على نايفة أيضًا.

تُرى ما الذي سيحدثُ، وما مصير الأم بعد قرار أهلها، وماذا عن نايفة؟

(الجزء الرّابع)

وعلى إثارة موضوع الأرملة "أم حسّان" الذي دار بين أهلها وأهل زوجها الرّاحل رفضت فكرة الزّواج رفضًا قاطعًا من أحد أقاربه الذي أبدى استعداده، وبالتّالي لم يَبْقَ لديها سِوى خيار الرَّحيل إلى أهلها

لتُنهي هذه القضيّة وتُرضي أهلها، وبهذا يكون الأولاد والتّركة من أرضٍ ومَواشٍ تحت رعاية الشّاب حسّان وأعمامه.

هذه الأحداث ونتيجتها وُزِّعَتْ بلا إنصافٍ ولا عدالةٍ على العائلة الصّغيرة، فحسّان أصبح المُعيل والمسؤول، ونايفة بين يومٍ وليلةٍ أصبحت أمًّا صغيرةً قبل أوانها والمسؤولة الأولى عن البيت بكُلّ ما تعني كلمة مسؤوليّة، وهي لم تبلغ الرّابعة عشرة بعد، وبالطّبع هذا الأمر الجَلَل قضى نهائيًّا على فكرة المدرسة والعودة إليها، ووجدت نفسها تقوم بأعمال البيت كأيّ امرأةٍ أخرى لدَيها واجبات تِجاه من يعيش معها.

وتمضي الأيّام ونايفة لم تتمكن من رؤية أمّها إلاَّ في الأعياد، فتَبيتُ عندها ليلة وفي الغد تعود إلى بيتها.

تَدَخُّلُ الأعمام في حياة العائلة لم يرُق لحسّان، كما وعانت نايفة من مُضايقات عمّاتها وتدخُّلهنَّ في كل شيء في بيتها ولكنّها لم تجرؤ على الشّكوى، لأنّها اليَتيمةُ مَرّتَيْن، مرّةً حين فقدتْ أباها والمرّة الثانية حين غادرت أمّها بلا رجعة، فكانت تبكي طوال اللّيل ولا أحد يسمعها سوى الأخ الصّغير فيسأل، وتكون الإجابة بأيّ تبريرٍ أو ألَمٍ وستكون بخير.

حسّان وحدهُ الذي أدركَ مُعاناة نايفة ولّما نَفِدَ صبرُهُ شَكا لِعَمَّهِ

الحال ومضايقات عمّته (زوجة عمّه) وطلب منه إلاَّ تتدخّل في كل كبيرة وصغيرة في حياة نايفة والبيت، وعلى أثر هذا الجدال تَفاقَم الوضع وازداد الطّينُ بلّة، وأصبحت عداوة بشكلٍ واضح.

لم ينقطع حسّان عن أمّهِ، فكان يزورها كُلّما سنحت لهُ الفرصة، فيَشكو لها سوء الحال ومضايقة أعمامه له ولأخته، فكانت أمّه تبكي وتحثّهُ على الصَبر والتّحمّل وعدم التّنازع معهم كي لا يسوء الأمر أكثر .

وتستمرّ الحياة وتمضي الشّهور ويصبح حسّان من أصحاب القُطعان الكبيرة والتِّجار يتوافدون إلى بيته فيُكرمهم ويخرجون إلى المَرعى ليأخذوا ما اشتروا منه وهذا الأمر جعل اسمه أكثر لمعانًا بين التّجار والأقارب أيضًا، فالحركةُ عند بيته أحيانًا أكثر من حركة الضّيوف والقادمين إلى "الشِّقّ" الكبير عند عمّه. هذا الأمر وهذا الصّيت لحسّان جعل أمّهُ تُنَفّذُ ما كان يخطر ببالها منذ فترة وهو تزويج حسّان، والزّواج سيجعلهُ حتْمًا أكثر استقلاليّة والتأثير الاجتماعي قد يبلغ المُراد، فيكون رجلاً بمعنى الكلمة وصاحب بيتٍ ومالٍ وعيالٍ، وبالتّالي يفعل ما يشاءُ دون تدخّلاتٍ من أعمامه، كما وأنّ فكرة الأمّ كانت تَرمي إلى أبعد من هذا بكثير، لأنّها فكّرت بتزويجه من بنات أخواله "بالبَدَل" والنتيجة أنّ نايفة ستكون

بالقُرب منها وبعيدًا عن أعمامها، ولّما جاء لزيارتها عرضت عليه الفكرة وخالَهُ أيضًا تدخّل في الموضوع فلم يُبْدِ معارضةً ولكن الأمرَ يتطلّبُ موافقة الأعمام بخصوص نايفة وكان الاتّفاق أن يتزوّج حسان آخر الربيع من هذه السّنة، أمّا نايفة فبعد سنة ونصف حيث تكون قد دخلت في السّادسة عشرة.

مرحلةٌ جديدةٌ وعهدٌ جديد سيبدأ في حياة هذه العائلة الصغيرة المُفَرَّقة.

تُرى ما الذي سيحصل وهل سيتمّ للأمّ ما أرادت؟ وما موقف الأعمام من زواج نايفة خارج العائلة؟

هذا ما سنُتابعهُ إنّ شاء الله في الجزء الخامس والأخير.

(الجزء الخامس)

كما أسْلَفْنا في الجُزءِ السَّابقِ بعدَ أن فُتِحَتْ قضيَّة زواجِ حَسّان وطلبَ من عَمِّهِ أن يكونَ على رأس "الجَاهة"، عَلِمَ العَمُّ بتفاصيلِ الزّواجِ وعارَضَ زواج نايفة بشِدّةٍ مُعَلِّلاً ذلكَ أنَّ ابن عَمّها أوْلَى بها وهوَ في سِنِّها، وكذلك عَرَضَ عليهِ الزَّواجَ من إحدى بناتِ أعمامه، أمَّا بخُصوصِ نايفة فَيُؤجَّلُ موضوع زواجها إلى سنَتَيْنِ لتَكونَ لابنِ

عَمّها.

لم يرضَ حسان بهذه النّتيجة، وحين عرضَ الأمر على أمّهِ وأخوالهِ قالوا لهُ أن يمضي في مَشروعِ زواجهِ، ويترك أمر نايفة ريثما تَكبرُ ولِكُلِّ حادثٍ حديث، وهذا الأمرُ لم يمنع عَمّهُ وأقاربه بالخُروجِ في "جاهة" خِطبته خاصّةً أنّها تَضُمُّ خيرة الرِّجال ممّن عَرفوا حَسّانًا.

وكان لِحسّان ما أراد، عرسٌ كبيرٌ في زمنٍ كانَتِ الأفراحُ فيهِ قليلةٌ، وكانَ قدِ استعدَّ لهُ حسّان أيّما استعداد وأحسن تَجهيزٍ، وحضرَتْ أمّهُ العرسَ، وكأنّ الحياةَ دَبَّتْ في العائلةِ من جديدٍ وتوافَدَ القريبُ القاصي والدّاني ليُشارِكَ حَسّانًا فرَحَه الذي كان سبعة أيامٍ بلياليها بِكُلِّ ما في الأفراحِ البَدويَّةِ من صغيرةٍ وكبيرة.

تبدأُ حياة حسّان وعائلته بالنَّبضِ من جديد، بيتٌ وزوجةٌ ومالٌ وحلالٌ وجاهٌ، زِدْ على ذلك أمّهُ التي أقامَتْ عندهُ من جديد، فالآنَ لا أحد يجرُؤ على الحديث عنها، فهو حامي الحِمَى وراعي الدّار وصاحبُ صَولةٍ وجَولةٍ، مع أنّهُ لم يبلغ العشرين من عمره.

استعادت نايفة جُزءًا من طفولتها بحضورِ أمّها، ولكنّها اعتادت على مسؤوليّات الكِبار، وهذا جعلها كالتّائهةِ في حياتها، مرحلةُ الحيرةِ في جيلِها كانت تجعل من تصرُّفاتها ما بين المَرأةِ الصّغيرةِ والطَفلةِ الكبيرة، ولكنّ وجودَ الأمِّ المُرشدةِ كان لها الضَّمانُ والأمانُ

والحضنُ الدّافئ، وخيرُ ما تَتَّكِئُ عليه فتاةٌ في جيلِها.

تَمَرُّ الأيامُ والشُّهورُ، وتكبرُ نايفة ويأتي اليوم المَوعود، فيأتي عَمّها ليطلبها لولدهِ فيتَجَدَّدُ الصِّراعُ بينَ العائلتين من جديد، ولكن أمام هذا الضّغط الكبير والعادات السّائدة، لم يكُن لعائلة حسّان من خيارٍ إلاَّ الرُّضوخ، كما أنَّ أمَّهُ كان لها حساباتها والنّظرة الأبعد ألاَّ تسود القطيعة بين ابنها وأعمامه، وأيضًا لأنّ الرّفضَ لن يُجدي نفعًا ولن يجرؤ أحد على خِطبة نايفة لو رفضَتْ، ولذلك اجتهدت على أن تتمَّ الزّيجةُ بموافقتهم وليس رغمًا عنهم.

وتتزوّجُ نايفة من ابن عمّها الذي يعيشُ في كنفِ أبيهِ، فتعيشُ حياةً غير مُستقرّة بسببِ خصامها مع عمّتها (أمّ زوجها)، وتطالب باستقلاليّتها فيتمُّ لها ما أرادت بفضلِ أخيها، بيتٌ صغيرٌ خالٍ من أيّ مقوّمات الحياة الأساسية، ولكنّ حسّان كان أعلم بحالها فكان لا يبخل عليها وعلى زوجها بشيءٍ، فتحسّنت حالتهما وبَدَأَا يرسمان معالمَ الطّريقِ نحو الحياة بوضوحٍ أكثر.

تمضي السُّنونُ ويَمتلئُ بيت نايفة بالأطفال، فيما انشغل زوجها في عملهِ في البيّارات، وما هي إلا أعوام حتّى حان وقت ذهاب بكْرِها إلى المدرسة، فتعودُ الذّكريات بنايفة إلى يومها الأوّل وهي في المدرسة، فتتذكَّرُ كُلّ شيءٍ، ولكن سرعان ما يوقظها اليوم الأخير، حين وَدَّعَتِ

المدرسة لآخرِ مرّة.

وفي صباحِ اليومِ الأوّلِ من بدايةِ السَّنةِ الدّراسية تأخذ ابنها الكبير، وهي تحمِلُ حقيبتَهُ الجديدة وتمشي مع نفس الطّريق التي كانت تسلكها صيفًا وشتاءً وتتَذكّر المواقِعَ التي كانت تجلسُ فيها لتَحلَّ بعض الوظائف، وها هُم نفس النّاس بجانب الطّريق في أراضيهم، إمّا يرعونَ قطعانهم وإمّا في طريقهم لجلب الماء. وكأنّ شيئًا لم يتغير إلاَّ هيَ والزّمن، فتتنهّدُ لتُوقظَ "نايفة" الكبيرة من حلمها الضّائع، ولكنّ مَرأى المدرسة حين أطلّت عليها ورأت السّاحةَ تعجُّ بالتلاميذ بقُمصانهم الزّرقاء كبُقعةٍ في السّماءِ ظهرت بين الغيوم فسرعان ما تعود لها ذاكرتها القديمة فترى نفسها من بعيدٍ في نفس الأماكن التي لعبَتْ وركضَتْ وجلست فيها، وما إن دخلت خطوة واحدة بعد السّياجِ المُتهالك حتى أجهشت بالبُكاء ودفعَتْ صغيرها وهي تشيرُ له بيدها نحو أسراب التّلاميذ لينضمّ إليهم، وها هي "نايفة في المدرسة" تنظر إلى ابنها في أولى خطواته نحو حُلمها القديم.

سلمى

(قصّة من خمسة أجزاء)

الجزء الأوّل

وفي تلك الليلة التي قرّرتْ سَلمى الهرب كي لا تكون زوجةً رابعةً تحت رَجُلٍ في سِجِلّهِ سِتُّ زيجاتٍ فكرّتْ كثيرًا كيف تقولُ لا فلم تجد غير هذه الطريقة بعدما انقضى الأمر دون أدنى اعتبارٍ لرفضها وبكائها الطّويل الذي صدّعَ رأس أمّها ولكن دون جدوى حيثُ لا حولَ ولا قوّةَ لأمٍّها في أمرٍ يقفُ والدها من ورائهِ بأقصى نفوذهِ على أن يتمّ لحاجةٍ في نفسه، ولعلمها إنّ الزّواج سيتمُّ بعد أيّام.

تقلّبَتْ كثيرًا في منامها عَلّها تفيقُ من غيبوبةِ نواياها، أو أن تحاول شيئًا آخر، وسيلةً أخرى من شأنها أن تثنيها عن قرارها الهروب من البيت ولكن لا شيء يفيد، فالحياةُ مرّةً واحدة والنّجاةُ من زيجةٍ كهذه هي حياةٌ جديدة لا محالة بالنّسبة لها، استندَتْ وهي ترتجف خيفةً بعد أن انتصف اللّيلُ وَخُيِّلَ لها أنّ الجميعَ قد عرفَ بما تُفكّر به وأنّ حياتها ستنتهي عند وقوفها، ولكن سُرعان ما عادت بها عزيمتها إلى قرارها فوقفت في مكانها تنظر إلى أركان

البيت نظرات المُودّعة التي لن تعود، وإلى أمّها النّائمة التي طالما حزنت لأجلها ولحظّها العاثر، اقتربَت منها وَوَدّتْ لو تُقَبّلُ جبينها ولكنّها خشيَتْ أن تفيق فتُفسِد عليها خطّتها وتقدّمت نحو أخوتها الصّغار النّائمين فلثمَتْهُم بقُبلاتٍ طويلة على رؤوسهم والدُّموعُ تنهمرُ من عينيها، وقلبها ينبض بتسارُعٍ رهيب، تراجعت إلى منامها ووضعت الوسادة فيه لتجعلهُ في هيئة النّائم ثُمّ حاولت الاقتراب من المكان الذي ينامُ فيه والدها ولكنّ أقدامها خانتها فلم تجرؤ أو ربّما إنّها لا تريد أن يكون آخر ما وقع عليه نظرها حين تغادر البيت.

خرجت من البيت وهي لا تدري إلى أيّ اتجاهٍ ستسير، لم تلتفت خلفها لِلَحظةٍ كي لا تترك أيّ مجال للنّدم أن يخترق عزيمتها ويحطّم إصرارها، وتمنّت لو أنّها تستطيع الجَري كي تبتعد بأسرع ما يمكن عن البيت وأخذت تَحُثُّ الخُطى وهي تنظر أمامها وحين أصبحت ما بين المشي والهَروَلة شعرت بأنّها ليست وحدها في هذا اللّيل الأسوَدِ، خافت أن تلتفت فالخوف والموتُ الآن في منزلةٍ واحدة بالنّسبة لها والجريمة والعقاب أيضًا لم يعُد لهما أهميّة، ركضت قليلاً وإذا بكلبهم يسبقها وذيلهُ كالكُرَةِ فوق ظهره وقد عرفها وأخذ يحوم حولها كالذي يحاول أن يفهم ما هذا الحدث غير العادي بالنّسبة له، اطمأنّت سلمى قليلاً وواصلت هروَلتها والكلبُ يسبقها

أحيانًا ثّم يعود إليها، قطعت مسافةً لا بأس بها ولكن ما زالت تعرف المنطقة وهذا يعني إنّها لم تبتعد بالقدر الكافي، أمّا الكلب فقد عرف إنّهُ خرج من دائرة مَهامّهِ الاعتياديّة وأنّ ما تفعلهُ سلمى لا طاقة لهُ بفهمه وقرّر العودة.

بدأ التّعبُ والإرهاق يرتسمان جليًّا على مشية سلمى بعد حوالي ساعتين من المشي أمّا الخوف فقد فارقَها حين ابتعدت عن ديارهم، وهي تقطع الفيافي في ظُلمة اللّيل وقد تعطّلَ تفكيرها فيما سيجري وماذا سيحصل حين تفتقدها أمّها، وتابعت المسير دون أن تقف للحظة.

ها هي خيوط الفجر الأولى تَشُقُّ ببطءٍ حلكة الظّلام الدّامس ولا شيء يُسمع غير صوت فِرار العصافير والطيور النّائمة كلّما اقتربت أقدام سلمى من مهاجعها، مُنهّكَةٌ مُتعَبة تواصل هروبها وقد بدأ الصُّبح يَنبلجُ وبانَ وجهُ أرضٍ لا تعرفه سلمى فشعرت ببعض الارتياح ولكن الخوف استجدّ في قلبها مع أوّل شُعاعٍ للشّمس وأدركت أنها الآن مكشوفة تحت قُبّة السّماء بعد انجلاء الليل.

أكثرُ من أربع ساعات متواصلة من المشي جعلت من سلمى أن تتمنّى لو تثني قدميها أو تجلس لبُرهةٍ وهي تتصبّبُ عرقًا وقد أخذ التّعبُ منها ما أخذ واشتدّ بها العطش ولكن يستحيل أن تقف في هذا

الخلاء، خاصّةً بعد أن عاد إليها الخوف من الهلاك هذه المرّة، فأصرّت رغم الإعياء الشّديد أن تواصل المسير وهذه المرّة لتبحث عن أيّ شيء يُعيد الحياة إليها.

أشرقتِ الشّمسُ بقوّة ولفحَتْها حرارة تموّز الحارقة وسلمى تنظر إلى جميع الأنحاء لعلّ نظرها يقعُ على أي شيءٍ، وقبل أن تفقد الأمل رأت من بعيد صهريج ماء يتوسّطُ أحد المراعي ففرحت كالتي وجدت ضالّتها وانقلبت إليه بآخر قواها الخائرة وحين وصلتْهُ شربت منه وجلست تحت ظلّهِ لتستريح وما هي إلاَّ بضع لحظات حتّى وجدت نفسها تضطجع رغم إرادتها لتستغرق في نومٍ عميق.

(الجزء الثاني)

نامت سلمى كالقتيلة بلا حراكٍ ولا عراك متوسّدةً ذراعها تحت الصّهريج كالمُصابة بُحمّى النُّعاس من التّعب والإرهاق، مرّت رُبما ثلاثُ ساعات وصار الوقتُ ما بعد الضُّحى بقليل وهي على جانبٍ واحد، حلمت أنّ أهلها اكتشفوا أمرها وتعقّبوا آثارها وطاردوها حتّى عثروا عليها وها هو والدها يجثمُ فوقها ويكيل عليها الطعنات وهي عاجزة حتّى عن الصُّراخ، وما زالت تشعر بالطعنات وكأنّها تُشرفُ

على الموت عندها فتحت عينيها ورأت أقدامًا ضخمة حافية تقف بالقرب منها، إنّها ليست أقدام أبيها بل أقدام "أبو سالم" صاحب الصهريج الذي وصل ليسقي قطيعهُ وما كانت الطّعنات إلاَّ وَخَزاتٌ من عَصَاهُ وهو يحاول إيقاظها بعد أن تعب من المناداة عليها وظنّها ميّتة.

تململت سلمى ببُطءٍ شديد وهي غير متأكدة من صحوتها أو لعلّها مرحلة من حلمها المُخيف، ولكنّ صوت "أبو سالم" بدأ يخترق سَمعها بوضوح وهو يسألها عن شأنها وما الذي أتى بها إلى هنا، لم تُجبهُ بحرفٍ وكلما عَلَتْ نبرة "أبو سالم" زاد استيقاظها حتى أدركت إنّها مع أوّل لقاءٍ لها في قائمة مصائبها المُقبلة، وازداد خوفها من أنّ أمرها سينكشف في مراحله الأولى وهذا لم تحسب له حِسابًا.

يئسَ "أبو سالم" من أسئلته، وعاد إلى الوراء وفتح الماء ليسقي قطيعه وهو يفكّر في أمر هذه الفتاة، من أين أتت وما وراء صمتها ومَنْ هي ولماذا هي هنا في هذا المنطقة النائية، أمّا سلمى فقد اطمأنّت قليلاً حين رأتْهُ مُنشغلاً بقطيعهِ، وأيضًا لأنّهُ أوقفَ سيل أسئلته عنها، كما وأنّها رأت فيه سمات الرّجُل الطّيّب الذي لن يضرّها حتى الآن وخاصّةً حين نادى عليها لتغسل وجهها وتشرب الماء.

لم تتشجّع سلمى كثيرًا لطلب أبو سالم ليس خوفًا بل لأنّها تشعر

بألمٍ شديد في جميع أنحاء جسمها وظنّت أنّ قدميها لن تتحمّل الوقوف ولكنّها وجدت نفسها في حرجٍ أو قُل إنّ عليها الطّاعة مؤقتًا ريثما تنكشف النّوايا وتتجلّى الصورة أكثر.

عاد أبو سالم ليسألها وهي على حالها تلوذُ في صمتٍ كالتي لم تسمع أيّ كلمة، عندها أدرك أبو سالم أنّ الفتاةَ في مأزقٍ وقال لها إنّهُ سيأخذها معهُ إلى "العِزبة" حيثُ زوجتهُ هناك رُبّما تستطيع هي التّفاهمَ معها، لم ترُق هذه الفكرة لسلمى خوفًا من نوايا الرّجُل وبحقّ، فهي لا تعرفهُ مع كل ما عرضهُ عليها، ولكنّها تراجعت عن رفضها حين قال لها بأنّها لا تستطيع البقاء هنا لوحدها فهذه "بلاد مقطوعة" مليئة بالوحوش، وعندما أنهى أبو سالم سقاية القطيع ناداها لتركب معهُ على جناح "التّراكتور" فركبت واتّجهَ أبو سالم نحو "العِزبة" يتبعهُ القطيع.

شعرت سلمى أن القَدَرَ قد ابتسم لها وأنّ الرّجل صادقٌ في نواياه حين لاحظت من بعيد خيال امرأة تجلس في الخيمة الصغيرة (العِزبة)، فبدأت ترتّبُ أفكارها من جديد وتستعدّ لمواجهة القادم المجهول، ولكن التعب ما زال يُذكّرها بالرّاحة أوّلاً خاصّةً أن الجوع بدأ يلوي أمعاءها بشدّة.

نهضت "أم سالم" من جلستها مُستنكرةً عودة زوجها في ساعات

ما قبل الظهر ووقفت تنظر إليه، وما أن لاحظت وجود الفتاة حتى انطلقت إليهم مُسرعةً وقبل أن يتوقّف التراكتور كانت قدمها على الدرجة الأولى وهي تسأل:

-"من هذي يا أبو سالم"؟

حاول أبو سالم كسب الوقت لإعداد إجابةٍ قصيرة مُقنعة وفي ذلك الوقت أشار للفتاة بالنزول كُلّ هذا و"أم سالم" تُكرّر السؤال مرّة تلو المرّة، وهي تنظر إلى سلمى نظرة استغراب شديدة، بعدما أدركت من هيئتها وشكلها والإرهاق البادي على وجهها أنّها لاقت الكثير وحاولت أن تفهم دور زوجها بين هذا كلّه، نزلت سلمى وهي تتألّم من قدميها وأخذتْها "أم سالم" وأجلستْها وهي تنظر إليها تارةً وتارةً أخرى إلى زوجها كالتي تنتظر الأجوبة على أسئلتها.

سرد لها "أبو سالم" الحكاية من أوّلها إلى آخرها ولكنّ زوجتهُ لم تُصَدّق حرفًا ممّا سمعتْ، وعادت تسأل الفتاة من جديد عن أمرها وما الذي تفعلهُ هنا وأيّ مصيبة جاءت بها إلى هذه البلاد، وزاد من استغرابها حين لاحظت أنّ سلمى فتاةٌ في غاية الجمال وهذا ما أقلقها وجعلها لا تصدّق أنّ زوجها وجدها نائمةً تحت الصهريج، ولّما لم تجب سلمى على أيّ سؤال تركتها وشأنها وهي تفكّر فيما قاله زوجها وبدأت تستنتج الأحداث وتضع لنفسها تفسيرات

وحـالات قـد تـصدّق هـذه الرّوايـة وعـزّز حالـة الفتـاة المُرهقـة مـن تفسيراتها بأنّ الفتاة عانت مشقّةً لا يعلمهـا إلاَّ الله حتـى وصـلت إلى هنا.

أحضرت لها الطعام وهذا ما كانت سـلمى في أمَـسّ الحاجـة إليـه فأكلت علـى اسـتحياءٍ في حـين لم تجلـس معهـا "أم سـالم" وكانـت تراقبها من بعيد.

ارتاحت سلمى واطمأنّت ولكنّها أصـرّت ألاَّ تكـشف أمرهـا ولكـن فراسة أم سالم جعلتْها تضع الأجوبة الصحيحة وهي أنها هاربـة مـن مصيبة ارتكبتها، ولو كان غير ذلك لكشفت الفتاة عن أمرها.

حـلّ المـساءُ علـى "العِزبـة" وهنـا بـدأت الفتـاة بـالقلق مـا الـذي سيجري الآن وماذا لو حجزوها إلى حين أن يتّضح أمرها ولكنّ سـلوك أبو سالم كان يوحي بغير ذلـك خاصّـةً أنـه بـين حـينٍ وآخـر يـسأل زوجته عن أحوالها – أي أحوال سلمى– وهنا دقّ ناقوس الشّك مـن جديد عنـد الزوجـة، وبعـد العَـشاء قامـت الزّوجـة وفرشـت لـسلمى بجانبها أمّا فـراش أبـو سـالم فوضـعتْهُ بجانـب (مـراح الغـنم) وهـي مسافة بعيدة نسبيّاً.

لم تنم سلمى من قلقها وخوفها وهي تفكّر في الخطأ الـذي جعلـها توافق بالقدوم مع أبو سالم والخطأ الآخـر هـو فكـرة المَبيـت في بيـت

غُرباء، أمّا أمّ سالم فاستغربت جدًّا تأخُّر موعد نـوم زوجهـا إلى هـذه الساعة حيث كان قبل هذه الليلة ينام قبلـها بكـثير وزادت شـكوكها وهي تراهُ يتقلّب من جانبٍ إلى آخر وهي لا تدري أنّ كُلّ الذي يقُضُّ مضجع أبو سالم هو أنينُ إحدى الماعز الذي أزعجهُ وأقلقَ نومه.

وأصبحَ الصّباح .....

رحلــةُ الضَّياع

(الجزء الثّالث)

أصبح الصّباح على سلمى وهي أفضل حالاً من الأمس وبعد يومهـا الثاني منذ هروبها استيقظت في ساعةٍ مُبكّـرةٍ علـى صـوت أبـو سـالم وزوجته يتجادلان لم تستطع فهم الموضوع بالتّحديد ولكنّ مـن المؤكّـد إنّهُ بشأنها، غادر الرُّجل مع قطيعه أمّا سـلمى فقـد اسـتعدّت نفسيًّا لمواجهة "أم سالم" وإخبارها بحقيقتها لعلّ ذلك يُطمئنها ورُبّمـا تجـدُ لها مَخرجًا، ولكـنّ أمّ سـالم لم تـسألها بـل عمـدت إلى حقيبـةٍ لهـا ووضعت فيها بعض الملابس وألقتها بجانب سلمى ثُـمّ أخرجـت مـن "صُوفيّتها" بعض النقود وقالت لسلمى:

-"اللّه معكي"

وقفت سلمى مشدوهةً لبُرهةٍ وهي تُفكّر في المفاجأة التي لم تستعدّ لها على الأقلّ الآن، ولكنّها لم تنطق بحرف وأخذت الحقيبة والنقود واستدارت لتمشي وسمعت أم سالم تقول بأنّ الطريق غير بعيد من هنا وأشارت لها على اتّجاهه.

خرجت سلمى بسرعةٍ وعقلها يُحدّثها أنّ الصّعوبات قد بدأت، فإذا كان هذا حال الذين استقبلوها وساعدوها لم يحتمّلوها ليلةً واحدة فكيف الحالُ لو صادفت مَنْ هم ليسوا من أهل الخير، والدّنيا لا تخلو من الأشرار ولكن الآن لا تراجُع فالمحظورُ قد وقع، ولا بُدّ أنّ أهلها الآن يقلبون كُلّ حجر ويقلعون كُلّ شجر بحثًا عنها والابتعاد عنهم يعني الابتعاد عن الموت.

قطع حبل أفكارها صوت سيّارة قادمة من بعيد فأدركت أنّها قريبة من الطريق العام ثُمّ الْتَفَتتْ خلفها لترى كم هي بعيدة عن "العِزبة" وإذا بها ترى غُبارًا يتعالى إلى السّماء ويتقدّمُ بسُرعةٍ فأصابها الهلع والذُّعر وأيقنت أنّه ربّما أهلها تعقّبوها أو وصلوا إلى "أبو سالم" واستفسروا منه، ركضت بأقصى ما تستطيع إلى الشارع وعبرت بعض الأودية الصغيرة تقفزها بجنونٍ وهي تعلم أنّها قابَ قوسين أو أدنى من موتٍ مُحقّق، وصلت الشارع وهي تنظر خلفها وإذا بسيّارة تطلق صافرتها لها من بعيد وتضيء مصابيحها عدّة مرات، لم تفهم سلمى

ماذا يريد ولكنّ السيارة أبطأت كلما اقتربت حتى توقّفت بجانبها نظرت سلمى إلى السائق ومَنْ معهُ فتذكّرت سيارات نقل الرُّكّاب، فركبت ليس لأنّها تودّ السّفر الآن ولكن كي تقطع الطريق على من يحاول اللّحاق بها من أهلها فيما لو كانوا هُم القادمون.

انطلقت السّيارة ولم يأبه لها أحدٌ من الرُّكّاب فاطمأنّت وهدأت قليلاً وعرفت من خلال علامات الطريق وشواخصه أنّها مُتّجهة إلى إحدى البلدات في الضّفّة الغربية، فلم تكترث كثيرًا وكان كُلّ ما تريده هو الابتعاد عن تلك الدّيار المشؤومة وصلت السيارة برُكّابها إلى مركز البلد ونزل جميعهم وهي أيضًا نزلت بعد أن دفعت الأجرة، ووقفت في مكانها لتستوعب حجم المصيبة الجديدة التي حلّت بها هنا، فالشوارع تعجّ بالمارّة وماذا لو تعرّف عليها أحد من بلاده فبدأت السّير نحو المحلات وبين الأزقّة مُبتعدّةً عن الزّحام وجلست في ظلِّ أحد البيوت لتستريح، فنزلت صاحبة البيت حين رأتْها وسألتها عن حاجتها.

تذكّرت سلمى ما جرى لها عند "أم سالم" حين لم تُخبرها عن حالها فقرّرت هذه المرّة أن تجد جوابًا مُقنعًا فقالت لصاحبة البيت بأنّها تائهة ولما اطمأنّت لها المرأة أدخلتها إلى البيت وأجرت معها تحقيقًا شديدًا فيه بعض التّهديد مما جعل سلمى تستسلم للأمر

الواقع وتسرد حكايتها بالتّفصيل.

لم تترك للمرأة أدنى شّك في روايتها وتعاطفت معها وأخبرتها أنّها ستُبقيها عندها حتّى تجد حلاً لها، وأكرمتها بالطّعام ودعتها للاستحمام وتبديل ملابسها، وبدأت سلمى تثق في المرأة، وعند المساء اجتمعت العائلة وعرفوا قصّة سلمى ووعدوها بكتمان الأمر حتى يأتي الفرج من عند الله، نامت سلمى ليلتها على أضواء الكهرباء التي لم تشاهدها من قبل وهي لا تدري ماذا يدور في ذهن هذه العائلة اللطيفة حتى الآن، وكان كُلّ تفكيرها في نجاتها اليوم من موتٍ اقترب منها.

مكثت عند هذه العائلة ثلاثة أيام بلياليها، وفق خطّةٍ اتّفقوا عليها الجميع على أنّ سلمى قريبة لهم قدمت من الأردن ضمن مشروع لم شمل متعارف عليه في ذلك الوقت، ولكنّ المرأة المُضيفة كانت أشدُّ حرصًا وذكاءً حين علمت أنّ هذه الفتاة تحمل هويّةً إسرائيليّة فعرضت على أخيها "حسن" الموضوع الذي وافق على الفور أن يلعب دور العاشق الذي سيُعجَبُ بسلمى من النظرة الأولى وهذا ما حصلّ فعلاً، فقد كان يأتي ويبقى لساعاتٍ في بيت أخته بخلاف طبع سلمى التي لم تتعوّد على الاختلاط بالغرباء ولكنّها لا تستطيع الاعتراض فهُم أهل حضر وقد تختلف العادات وأقنعت نفسها أنّ هذه المرحلة ستنتهي وأنّ هذا المُعجَب سيمَلّ ويتركها وشأنها.

وعندما لاحظت المرأة صاحبة البيت أنّ سلمى عصيّة على أخيها، انتقلت إلى مرحلةٍ أكثر تأثيرًا وعرضت عليها أن تُزوّجها لأخيها فرفضت سلمى رفضًا قاطعًا واتّجهت نحو الباب لتخرج ولكن حسن اعترضها فيما لحقتها المرأة محاولةً إقناعها أنّ الزّواج سيكون شكليًّا فقط وأمام النّاس كي لا يشكّ الجيران والناس في وجود امرأة غريبة هنا، وهذا سيجعلها أيضًا في مأمنٍ من كلام النّاس ويصبح وضعها طبيعيًا، تراجعت سلمى بعض الشيء وعدلت عن رأيها بالمغادرة وفكّرت كثيرًا في اقتراح المرأة وأخيها خاصّةً إنّها لا تقوى الآن على البحث عن مكانٍ جديد للاختباء بعد أن أفشَتْ سرّها لهذه العائلة.

زاد إلحاح حسن وأخته على فكرة الزّواج أو بالأحرى لحصول حسن على الجنسية الإسرائيلية كما وزاد التلميح بالتهديد بأنّ أمرها قد يفُتَضح فيما لو أصرّت على الرّفض، وأخبرتهم أنّها لا تحمل هويتها معها بل هي في بيت أهلها، ولكنّ حسن أكدّ لها أنّ هذا أبسط الأمور فما عليها إلاَّ أن تدلّهُ على مكان سُكناها وأين الهوية، وفعلاً أخبرته بالمكان، قالت إنّ جميع الأوراق المهمة والهويّات في صندوقٍ صغير في أحد أركان البيت، غاب حسن بضعة أيّام وعاد وهو يحمل الصّندوق بما فيه ولكنّه لم يُطلع سلمى على ذلك بل اكتفى أن

بشّرها أنّ الهويـة معـهُ ومـا علـيهم إلاّ أن يبـدؤوا بـإجراءات الـزّواج الصّوري.

تمرُّ الأيّام بسرعة على سلمى وها هي علـى مـشارف الـشهر عنـد تلك العائلة وقد عُقِدَ الزّواج الصّوري (شكلي) وتّم تـسجيله في مكتـب الداخلية كي يتمكّن حسن مـن طلـب إقامـة حـسب جنـسية زوجتـه وهذا الأمر كان سهلاً في ذلك الوقت، ومع مرور فترة معيّنة سيحـصل على الجنسية والهويّة الإسرائيلية رسميًّا، وهذا ما كان يتمنّـاهُ حـسن وغيرهُ كثير، حيث تمكّنـهُ الهويـة مـن التّنقّـل بكـل أريحيّـة داخـل البلاد والعمل أيضًا، سلمى لم تُدرك هـذا كُلّـه أو لم تعلـم حقيقـة مـا حِيكَ لها خاصّةً بعد أن شعرت بالأمان الوفير هناك وحتّى أنّ حسن لم يُخلف وعدهُ على أن يبقى الزّواج صوريًّا، وتَمُرُّ عدّة أشهر وحـسن لا يبخل على محاميهِ كـي يـستكمل الإجـراءات حتـى حـصل علـى الإقامة، فأقامَ وليمةً كبيرةً في بيت أختهِ حينها أحسّت سـلمى أنّهـا فرحت للمرّة الأولى لا سيّما أنّ الفرحة والوليمة بسببها هي، وشعرت أنّها العروس في هذه المناسبة ولكنّ عدم اكتراث العائلة لشعورها حطّم فرحتها وأيقظها على حالها التّعيس من جديد.

سافر حسن فرحًا في الصّباح إلى إسرائيل ومكث هناك عدّة أسابيع بعد أن وجد له عملاً، أمّا سلمى فبقيت في بيـت أختـه وقـد سـاءت

معاملة صاحبة البيت لها وأصبحت كالخادمة تقوم بكل مسؤوليات البيت وعرفت أنّها وقعت في مكيدةٍ قذرة خاصّة غياب "زوجها" عنها ما يقارب الشّهر، ولما اشتدّ عليها سوء معاملة سيّدة البيت قرّرت أن تذهب مع حسن حينما يأتي.

وأتى حسن ليبيت ليلةً واحدة في البلد وعلمت سلمى بذلك فذهبت إليه وأصرّت أن تذهب معه لم يعترض حسن بل تفاجأ من طلبها وأخذها معهُ إلى شُقّةٍ صغيرة في أحد الأحياء الفقيرة في المدينة التي يعمل فيها، وبطبيعة الحال أصبحت زوجتهُ الشّرعية أو غير الشّرعية بل القانونيّة إذا صدق التعبير، واستسلمت سلمى لغضب الحياة عليها، ورضيت بهذه الحياة بين أربعة حيطان على تلك الحياة في بيت أخت حسن.

وكان حسن يغيب أيضًا عنها يومين أو ثلاثة فكان كلّ همّه أن يعمل ويكسب بعدما قدّمت له سلمى الهويّة الإسرائيلية على طبقٍ من ذهب، لم تتذمّر سلمى أبدًا من غيابه ولم تطلب منهُ أيّ شيء، وتمضي الشّهور وتبرُزُ بطن سلمى وحسن يزداد غيابه أسابيع بدل الأيّام وإذا حضر إليها كان يأتي متأخّرًا ويذهب باكرًا، ويستمرّ في غيابه

وذات يومٍ في الصباح يدُقُّ جرس الباب ....

(الجزء الرّابع)

دقّ جرس الباب في الصّباح ولم تكن سلمى تتوقّع قدوم أحد، وتساءلت والخوف يعتريها: تُرى من يأتي في ساعةٍ كهذه وماذا يريد واستبعدت أن يكون زوجها حسن لأنّ لديه مفتاحًا، اقتربت من الباب بحذرٍ وما زال الجرس يدقّ بتواصُلٍ ورأت عبر فتحة الأمان رجلاً لا تعرفهُ، ولّما بدأ الرجل يطرق الباب بيده نادت من الداخل فردّ الطارق وقال لها إنه صديق حسن ففتحت نصف الباب، بدا الرجل كالمُتردّد وبالكاد ألقى التّحيّة وسألها إذا كانت سلمى ليتأكّد، عندها خافت وأقفلت الباب بسرعة في وجه الرجل، وجلست من وهلة الخوف الأولى وتذكّرت أنّها مُطارَدة ورُبّما هذا الرّجل من طرف أهلها وجاء ليتأكّد من مكانها.

ما زالت ترتجفُ وهي تجلس مُتّكِئةً على الباب كالتي تنتظر الموت فناداها الرجل بهدوء :

– "يا بنتي اسمعيني بس"

هدأت سلمى والدموع في عينيها عندما سمعت هذه العبارة وكرّر الرجل عبارتهُ حتى قالت له:

– "احكي سامعتك"

صمت الرّجل طويلاً حتى ظنّت سلمى إنهُ غادر ولكنه تنحنح وقال :

– لا أدري ماذا أقول ومن أين أبدأ ولكن لتعلمي إنّي قادمٌ من بيت أهل حسن زوجك بعد الانتهاء من جنازته رحمه الله حيث وقع له حادث سير قبل أسبوع وتوفّيَ بالأمس "العمر إلك".

وقع الخبر على سلمى كالصّاعقة وصرخت كالنّادبة على حظّها وارتمت على الأرض، ليس حُزنًا على حسن بقدر ما هو حزنٌ على حظّها العاثر، وأوّلُ ما تذكرّته هو جنينها الذي تحمله في أحشائها، مَنْ سيُؤويها الآن ومَن سيُصدّق إنّ هذا الجنين ابن حسن الشّرعي وليس ابن علاقة عابرة ودار في رأسها الكثير من التّساؤلات والفرضيّات وكاد أن يُغمى عليها من هول الصّدمة إلاَّ أنّ صوت الرّجل في الخارج كان يتردّد فيوقظها وهو يسأل عن حالها ولماذا لم تردّ عليه.

يئس الرّجل منها واقترح عليها أن تذهب إلى أهل حسن فهذا خيرٌ من أن تبقى وحيدة هنا وغادَر.

لم تفق سلمى من الصّدمة بعد وظلّت في مكانها مُستندةً على الباب تُغطّي وجهها بكَفّيها كالتي لا تـوَدُّ أن ترى هذا العالم ولا حجم الظُّلم المتراكم فوقها ولكنّ كلمات الرّجل الأخيرة كانت تشدّها

للتفكير فيما قال، ورجّحتْ أنّ هذا هو الذي يجب أن تفعله كيف لا وهي تحمل في أحشائها ابنهم لا بدّ أن الموازين الآن ستنقلب وسيكون لها وضعٌ أفضل من ذي قبل، وفي الحال جمعت ملابسها وبعض الأغراض وسافرت إلى بلد زوجها، وحين وصلت كان العزاء في أوجه فلم يكترث لها أحد وبقيت هناك إلى أن غادر المُعَزّون حينها انتبهوا لبقائها وعرفوها فاستنكروا قدومها بعد هذا الوقت وسألوها ما الذي أتى بها ثانيةً إلى هنا، لم تفهم سلمى تلك الأسئلة واستغربت جدًّا منهم هذا الاستقبال وهي أرملة ابنهم، حاولت أن تُوضّح لهم أو تذكّرهم مَن هي ولكن دون جدوى ما زالوا على استغرابهم من حضورها، ولّما قالت لهم:

-أليس من حقّي أن أحضر عزاء زوجي؟

ثاروا في وجهها وكادوا يؤذوها وقالت لها أخت حسن:

– "من وين زوجك؟ الزواج كان حبر على ورق وانتي بتعرفي ومن يوم ما طلعتي من عِنّا لا شفناكي ولا بنعرف وين رحتي وحسن الله يرحمه من يومها ما شافك".

جُنّ جنون سلمى ولم تعُد تحتمل هذا الكلام، وكأنّها لا تُصَدّق ما تسمع أو لا تريد أن تسمع المزيد من هذا الظّلم والافتراء البائن، ولكنّها تذكّرت حُجّتها الأقوى التي لا شَكّ ستُنهي المسألة

لصالحها، فوقفت وقالت:

"كيف هذا؟ أنا من يوم ما طلعت وأنا عايشة مع زوجي حسن وبالأمارة حامل منه".

جاء الرّدُّ سريعًا وحاسمًا من أخت حسن وقالت:

– "روحي دوّري على أبو ابنك بعيد عنّا، حسن الله يرحمه ما تزوّجك إلاَّ على الورق".

أدركَتْ سلمى إنّها في مصيبة أكبر من كل مصائبها، وأنّ لا طاقة لها في مجابَهَة هؤلاء الناس ولا تستطيع إقناعهم، وما عليها إلاَّ الابتعاد عنهم في أسرع وقت قبل أن يحدث لها أي مكروه وخاصّةً أنّ النّقاش في عزاء ابنهم الذي لم ينته بعد، فعادت إلى شقّتها تَجُرُّ أذيال الخيبة من جديد.

تُرى ما الذي ستفعله سلمى بعد عودتها؟

(الجزء الأخير)

وصلَتْ سلمى إلى شقّتها في ساعة متأخّرة من اللّيل حاوَلَتْ فتحَ الباب ولكنّها لم تتمكّن وجرّبت كثيرًا دونَ فائدة، وعلى ضَجّتها وحركتها انتبهت لها جارتها اليهوديّة فعرفَتْها وأخبرتها أنّ صاحب

الشّقّة جاء وغيّرَ القفل لأنّ إيجارها لم يُدفَع منذُ ثلاثة أشهر وخاصّةً بعد أن علم بموت المُستَأجر.

لم تتوقّع سلمى أن تَتوالَى عليها المصائب بهذا القَدَر وبالتّزامُن الرّهيب الذي يفوق طاقتها على التفكير حتّى حَلٍّ مؤقّت، وجلست عند الباب مُتْعَبة مُرهَقة، ونامَتْ بقيّة ليلتها عند الباب تلتحفُ سِتارةً انتزعَتْها من نافذة الشّقّة حتى الصّباح حيثُ اكتشفها عُمّال النّظافة فظنّوها ميتة فأبلغوا الشرطة التي حضرت على الفور لتبدأ مرحلة جديدة في حياة سلمى، استيقظت وهي لا تفهم الوضع الجديد فالآن اختلف الأمر وأصبحَ مكشوفًا ولن تتمكّن من الكذب على الشرطة لمواصلة هروبها، ولأنّها لم تعرف أيّ شيء عن عالم الشرطة والقانون حدّثتها نفسها أنّ الأمر قد يكون لمصلحتها وقد تحميها الشّرطة أو تجد لها مخرجًا من مصائبها.

وبعد التّحقيق الأوّلي تبيّن لها أنّ أهلها قد أبلغوا عن فقدان آثارها منذ لحظة هروبها، وحاولت الشرطة معرفة الأسباب ووعدوها بالمساعدة، فسردت عليهم الحكاية من أوّلها إلى آخرها وأكدّت على خوفها من بطش أهلها إذا عرفوا مكانها، وهنا جاء دور ذوي الاختصاص في مثل هذه الحالات وأُحيلت إلى قسم الشّؤون الاجتماعيّة وباسْمِ القانون وسُلطته تَمّ إبلاغ الأهل عن العثور على

ابنتهم التّائهة، وهي الآن تحت حماية القانون والمُؤسّسات، وبطلبٍ من الشرطة تمّ توقيع تعهّد من الأهل بعدم التّعرّض لسلمى بسوء.

نُقِلَت سلمى إلى أحد الملاجئ المتخصّصة بإيواء حالات كهذه ولأوّل مرّة تكتشفُ سلمى عالَمًا جديدًا مليئًا بالتّحدّيات بل أكبر من معاناتها منذ خرجت من عند أهلها، فهُنا الخِبرة في الحياة هي الطريق لفرض الوجود وإلاّ فالضعيفُ هو هُلامٌ يتشكّل حسب رغبات الآخرين، هنا ثقافاتٌ غريبة وأطوارٌ وأنماطٌ متعدّدة لم تكن سلمى لتتصَوّر وجودها يومًا في هذا العالم، رأت في الملجأ كلّ شيء لم تكن لتُصدّقهُ قبل ذلك، الحُريّة المُطلقة في لبس ما تشاء والحديثُ مع مَن تشاء والتّعامُلات حسب المواصفات والأجناس والأعراق، والفوضى العارمة في الأخلاق لدى بعض النّزيلات، ولكنّ شعورها الآن بالأمان تحت رعاية مؤسسةٍ رسميّة نهاها عن التفكير في أيّ شيء آخر وتواصُلها مع المسؤولين قد فتح لها بابًا نحو الحياة من جديد وهي لم تدرك بعد ما ينتظرها وكان كُلّ خوفها أن تصل إلى ما وصلَتْ إليه بعض اللّواتي سَبَقْنَها وصار حالهُنّ كما رأت، لا سيّما أنّ أغلبهُنّ وصلْنَ بسبب خلفيّاتٍ مُشابهة لحالتها.

سلمى الفتاةُ المثاليّة في الأدب والأخلاق والتّربيّة لم تُصَدّق أنّها وصلت إلى هنا لمجرّد أنّها اعترضت على حقّها في تقرير مصيرها،

هذا ما كان يدور في وجدانها طوال الوقت وأقنعت نفسها أن لا تتعدّى هذه المرحلة والأوصاف مهما جرى، ولكن للقدرِ تصاريف أخرى، فعائلةُ سلمى استعدّت لاستعادة سلمى وتعهّدوا بعدم المساس بها، كما واستعانوا بذلك بكفالاتٍ حسب الأعراف والعادات والتّقاليد الدّارجة في مجتمع سلمى.

عُرِضَ الأمر على سلمى أنّ أهلها سيقبلون بعودتها دون قيدٍ أو شرط وحُضن العائلة في انتظارها في أي وقت، لم يتّسع قلب سلمى الصّغير لحجم الفرحة التي حلّتْ عليها دون سابق إنذار، ملأت السّعادة كيانها ونسيَتْ في لحظةٍ كُلّ مصائبها وأهوالها التي مرّت بها وتذكّرت بيت أهلها ووالدتها وأخوتها ومرتع طفولتها ودلالها، كُلّ الحياة الجميلة التي مرّت بها وعاشتها التي انتهت حينما قالت " لا" على طريقتها بعد أن فشلت في قول "لا" المَسموحة شرعًا وقانونًا، وكانت لا تنام في الليل وهي تفكّر في عودتها إلى أهلها وتنتظر بفارغ الصّبر اكتمال الإجراءات وكانت كُلّ صباحٍ تخرجُ أمام الملجأ لتُراقب وتنتظر على أحرّ من الجمر أن ترى من تعرف ليأخذها إلى حُضن أمّها، وفي صباح أحد الأيّام وَدّعت سلمى جميع النّزيلات في الملجأ وخرجت تنتظرُ كعادتها فتوقّفت بجوارها سيارة وعرفت سلمى من فيها فانطلقت نحوها بلهفة العائدة من الموت إلى الحياة

ولم يُوقِفها من انطلاقتها إلاَّ سِتُّ رصاصاتٍ اخترقَتْ جسدها فَهَـوَتْ في مكانها بلا روح.

على سَفَر

منذُ الصّباح بدأتْ تُرَتّبُ البيت الصّغير، فَكنَسَتْ أمامهُ وَطَوَتِ "العِدّة" ولم تترُك لِحافًا ولا مخدّة وجمعَتِ الغَسيل ووضعتْ المُنخُل و"الذّفال" في برميل الطّحين ووضعَتْ عليه حجرًا ثقيلاً وشَدّتْ "عِروة الفَرْدة" المَملوءَة بالقمح كي تَضمنَ ألاَّ تعبث بها "البَكْرَة".

كُلّ هذا وابنها الصّغيرُ يُمْسكُ بتلابيبِ شاشِها لأنّهُ أدْرَكَ أنّ شيئًا أو حدَثًا غير عاديّ سيحدُثُ اليوم ولا يستطيعُ تفسيرهُ لصغرِ سِنّهِ، نعم هو حدَثٌ من أحداثِ أيّام الجُمَعةِ حيثُ سيذهبونَ إلى" فَرح" الأقارب في منطقةٍ أخرى، أمّا بقيّةُ الأخوة فكانوا يلبسونَ الملابس المدرسيّة حيثُ لا جديد غيرها، فيما تُشرِفُ أختهُم الكبيرة ابنة الرّابعة عشرة على غَسيل رؤوسهم وتمشيط شُعورهم، وتنهرُ أوسطهم أن يُبدّلَ الحذاء من اليَمين إلى اليسار، وأثناء ذلك تتلقّى تعليماتٍ من الوالدةِ المشغولة بأن لا تنسى أن تملأ "مَقْر" الكلب بالماء وكذلك الدّجاج.

تَرْكُ البيتِ ليسَ أمرًا سهلاً عندما نتحدّثُ عن بيت الشَّعر حيث لا أبواب ولا أسوار والحدثُ مهمّ ورُبّما لا يتكرّرُ في السّنةِ مرتَيْنِ أو ثلاثة، ولهذا حرصَ الأبُ على "وْداعة" قطيع الغنم مع جارهم وقال

إنه سيمُرّ ليأخذ منه "القَوَدْ" بعد قليل.

تَجَهّزَ الأولاد وانطلقوا نحو "التندر" ورفع الكبيرُ منهم الصغيرَ إلى الصّندوقِ الخلفيّ في فرحةٍ لا توصف، كيف لا والسَّفرَةُ طويلةٌ وركوب السيّارةَ في الخلف له مُتعة لا تُضاهَى وَعَلا صياحهم يتنازعون على مقدّمة المقعد الطّويل المُشرِف على "الكبينة" إلى أن صرخ فيهم الوالد:

– "روقوا لنبطّل المَشية"!

سادَ الصّمتُ المَهيبُ وهدأ الأولاد فيما الأبُ يضعُ منديلهُ على رأسهِ مُمسكًا بطرفَيْهِ من الأسفلِ ويُحرّكُ رأسَهُ داخلَ المنديلِ كي يتّخذَ مكانَهُ كما يجب وبعدها يُثَبَّتُ "المرير" بيديه معَ إمالَةٍ إلى درجة "النّكْسة" وهي من مُمَيَّزاتِ الأناقَةِ وخاصّةً على المنديل "المْزَهّر".

الأمُّ لم تَجْهَز بعد، ولكنّها ستكونُ في قِمّةِ أناقتها ولن يأخُذَ منها هذا إلاّ بضع دقائق حيث ستختفي لبرهةٍ وتلبس "ثوب الدّسّ" المُطَرّز الذي تشهَدُ كُلّ غُرْزَةٍ فيه على لمسَةٍ من أناملها وإبرَتِها، ثُم تُخرِجُ "المَجْمَع" من "قْعور العِدّة" وتضعُ قلادة الذهب في رقبتها وكذلك "المَحْنَكَة" و"الدِّخْنِقّة" "والحُلقان" "والشّناف" و"الأساور" وبعضُ "الخَواتم" في أصابعها ثُم تتناول "قُنعتها" وتلتفُّ بها مع شَيءٍ من عِطرٍ مُعَتّقٍ تحتفظُ به منذُ سِنين.

وتنتَهي من زينتها على صوتِ زوجها وهو يبحَثُ عن "فِرْدِة"حذائهِ اليُمنى ونسيَ أنه قذف بها ليلة أمس على القِطّة التي كادت أن تصلَ إلى كيسِ "الجِرْجِب" المُعَلّق عند "المِقْدِم" ومن هُناك نقلها الكلبُ إلى "مَرْبَضه" الدّائم.

وبعدَ هذا كُلّه رَكِبوا جميعًا "التّنْدَر" وانطلقوا وفي الطريق لحقوا بقطيعهم ونزل الرَّجُلُ ليأخذ "القَوَدْ" المَنشود، وقف كأنّهُ يحتارُ على أيّ فريسةٍ ينقَضّ، وأخذَ يخطو نحو "مخلوبة" تطرّفَتْ بعض الشّيء عن الرّعّية وكاد يمسكها على صَيْحةٍ مقطوعة من زوجته فَهِمَ الرّجل أنَّ معناها "ودّك تفضحنا"! فغَيّرَ وجهتهُ في الحال نحو خروفٍ "أدْعَم" لو ركِبَ ظَهْرَهُ لأوْصَلهُ الفرح دونَ جهد، وربطَهُ عند الأولاد في الخلف، وانطلقوا بينما هو يمسك المِقوَد بيَدٍ واحدةٍ والأخرى تبحثُ عن شريط "سميرة توفيق" فتعطيه زوجته شريطًا لـ "فاطمة عيد".

الدَّحُّول

الزمان:

قُبَيْل المغرب بساعةٍ تقريبًا

المكان:

أحد الشِّعاب في البادية الشّمَّاء

المَشهد:

أشعلتِ الأمُّ النَّار ووضعت الصّاج عليها ليسخن، وهي تلحظُ بعينها الطّنجرة التي وضعَتْها قبل قليل على (بابور الكاز)، وابنها الصَّغير يُمسكُ بطرف شاشها يتبعُها أينما ذهبت وهو يُوَلْوِلُ ما بين البُكاء والوَنْوَنة، أما ابنها الأكبر قليلاً فكان يسألها كل لحظة متى ستفتح "عُلبة البندورة" ويحدِّرها ويُشدِّدُ عليها للمرّة العاشرة وأكثر ألاَّ تفتحها بالكامل، ذلك إنه سيجعل منها عَجَلَةً في لُعبتهِ (الدَّحول) التي صَمَّمها. وهذه العُلبة ينتظرها بفارغ الصبر منذ ثلاثة أيّام كي تَسير (الدَّحُّول) على أربع عَجَلات.

أما الأبُ "عيد" فكان جالسًا أمام البيت يُشعِلُ من جديدٍ بقية سيجارته التي كادت تختفي بين شَفَتَيْهِ، ثُمَّ نفثَ ما أتيحَ له منها، وبَصَقَها خَلْفَهُ، أعقبَها بنظرةِ ترَقُّبٍ واستعجالٍ لعودةِ القَطيع مع

ابنته البِكْر "نايفة" وهو يُتمتمُ بينه وبين نفسه بأنَّها قد تأخَّرَتْ، وقامَ بعد ذلك إلى "القُفَّة" المُعَلَّقةِ في "الواسط" فأنْزَلَها وأخذ يبحثُ عن أدواتٍ وأغراضٍ فيها وهو يتَوَعّدُ الكبشَ بِقَصّ قَرْنَيْهِ بعد أن كاد يطعنهُ بقَرْنِهِ البارحة وقد أقسمَ "عيد" برأس أبيه أنّهُ سيقُصُّهما.

فاحت رائحةُ خبز الصّاج فقطعَتْ عليه تدبيره، فتوقَّفَ عن البحث، وقام وهو يتساءَلُ ما الذي أخَّرَ نايفة والقطيع، وقف في مكانهِ يَرْقُبُ انتفاخَ الفُقاعات في الرّغيف الذّهبيّ المُستدير على خلفيّة صوت طَبْطَبة من يدي زوجته وهي تُعِدُّ رغيفًا آخر، مُشيرةً له بيدها إلى الرّغيف، فخطفهُ عيد من سطح الصَّاج وثَناهُ إلى نصفيْن وشرع يأكل منهُ وهو يرسلُ ناظريه إلى الأفق ويقول:

–"العيّل تَوَنَّتْ".

وفجأةً أطلّ القطيع تتبعَهُ نايفة وهي تُرَفرِفُ بمنديلها وتنادي من بعيدٍ وتسأل أخاها:

– "أمّي طبخت خُبّيْزة"؟

فيَرمقها أخوها بنظرةٍ استغرابٍ وهو يدفعُ "الدَّحُّول" أمامه مُسرِعًا كأنّهُ يقول:

– ألا تَرَيْنَ "علبة البندورة" الرَّابعة في الدّحُّول؟.

أفراح وليالٍ مِلاح

يُحكى أنَّ...

بعد الانتهاء من موسم الحَصاد يبدأ الاستعداد "للفرح" وهذه المناسبة السعيدة قد تكون الوحيدة في المنطقة كلّها، فيقوم أهل الفرح بنَصْبِ خيمتين في مكانٍ بارزٍ ومُستَوٍ: واحدة للرّجال وأخرى للنّساء، وعادةً ما تكون الكبرى منهما للرّجال وتقع في النّاحية الشّماليّة دائمًا حيث يكون وجه الخيمة إلى الشرق وظهرها إلى الغرب، في حين تقع خيمة النّساء في النّاحية الجنوبيّة، وتفصل مسافةٌ بعيدة نسبيًّا بين الخيمتين.

ومن المعروف أنّ الأعراس في البادية تدوم أسبوعًا كاملاً وأحيانًا أكثر من ذلك، ويسبقها الغناء والابتهاج بأيامٍ وربما أسابيع، وبذلك يعلم القاصي والداني بالموعد المُقرّر، أمّا التّرتيبات فهي في غاية البَساطة، فالذّبائح متوفّرة بطبيعة الحال، وقد يشترون بعض الأكياس الكبيرة (الشُّنْفاص) لبناء (البِرْزِة) وهي الخيمة الصّغيرة التي سيُقيم فيها العريس وعروسه إلى أن ينتهي الفرح، وعادةً ما تكون هي الأخرى بعيدة بعض الشيء عن الخيمتين، وكذلك يشترون بعض الأشياء الأساسيّة وعلى الأغلب تُشترى هذه التجهيزات من أسواق

"غزّة" أو "بئر السبع".

وجرت العادة أن تُذبحَ الذّبائح في اللّيلة الأولى التي تُنصب فيها الخيام ويسمّى (عشاء البيوت) وهو بمثابة إعلان بداية الفرح الرّسميّة، فيَتوافد الجيران والأقارب ليُساعدوا أهل الفرح في كل شيء، ومنهم مَنْ يأتي بعياله وأهل بيته ليُقيموا عند أهل الفرح طيلة الأسبوع، والجميل في الأمر هو روح العطاء والتّعاضُد والمساعدة، فيأتي الجيران والأقارب بما عندهم من "مَفارش" وبُسُط، ووسائد (مَراكي) وأدوات القهوة وحبال وأوتاد وغيرها ممّا يلزم.

ويستمرّ الفرح بعد ليلة عشاء البيوت، أمّا العريس فيَبدو حتى الآن كأحد الأفراد (الْحِلِّيّة) يساعد هنا وهناك وما يلبث أن يختفي حياءً كُلَّما اقترب يوم الجُمعة وهو اليوم الذي تغادر فيه (الفاردة) – أي الزّفة – لتعود بالعروس.

لا ضوضاء ولا ضجيج ليالٍ هادئة مليئة بالسّعادة للجميع طيلة الأسبوع، ويزداد عدد الرّجال في ساعات المساء، عندما يبدأ السّامر "الدّحيّة"، والبعض يبقى "للتّعليلة" والحكايات الجميلة وغالبًا هم من الكبار، فيما يتّخذُ بعض الشبيبة موقعهم في طرف الخيمة مع لعبة "السّيجة".

ليلةُ شِتاءٍ باردة

حالةٌ من التّرَقُّب والقلقِ تبدو جليَّةً على وجهِ "عيد" وهو يتفقّدُ بنظرةٍ ثاقبةٍ كُلّ جوانب الخيمة قبل العاصفةِ المُنتظرة، البردُ قارسٌ و"الرّواق" تخفق الريحُ فيه كأنّها تختبرُ صُموده فيما هو أشَدُّ وأعتى.

كلُّ شَيْءٍ على ما يُرام، وهذا ما بدا واضحًا من عودة عيد السّريعة إلى الدّاخل لِيجدَ "الفَرْوَة" على طرفِ "العِدّة" بعد أن أخرجتها زوجته من "السُّحّارة" الكبيرة، فيُمسكها كَمَنْ وجد ضالَّتَهُ فيَرفعها مع طوله كأنّهُ يقيسها، وينفضها نفضةً واحـــدةً ثُمَّ يضربُ بيده على ظهرها ضربةً واحـــدة وبحركةٍ الْتِفَافِيَّةٍ يلتَحفُ بها مُطلقًا وَلْوَلَةً بصوتهِ الجَهور يتَخلَّلها اصطِكاك أسنانه وعبارة: "الدَّفا عَفـــــــاااااا".

جلسَ يَرقبُ لهيبَ النّار مادًّا يَدَيْهِ نحوَها بالتّناوُب، يُفَرْقِعُ أصابعهُ في كلّ مرّةٍ، وينظرُ إلى ابنتهِ الصغيرة "نايفة" وهي تُشعِلُ عُودًا ثُمّ تُحرّكهُ بسرعةٍ لتُشَكّلَ دوائرَ حمراء وتُعيد الكَرَّةَ كُلّما انطفأ العُود، أمّا زوجتهُ فخرجت لتُلقي نظرةً هي الأخرى وكأنّها تقول: "لِيَطمَئِنَّ قَلبي".

في هذه الأثناء كان عيد يُديرُ مفتاح الرّاديو ويضبط المُؤشّر على

موجة: "إذاعة المملكة الأردنيّة الهاشميّة من عَمّان" ليُتابع حلقةً جديدةً من: "مَضافة الحاج مازن".

ثلاثةُ أيَّامٍ بلياليها لم تُقفَل أبواب السَّماء، والمطرُ بين شديدٍ وخفيفٍ، وإذا انقطعَ يبقى الرَّذاذُ مُتَواصلاً إلى أن يعود المطرُ مُجدَّدًا، وعن البرد حَدِّثْ ولا حَرج.

و"عيد" الذي ينتظر أن تهدأ هذه العاصفة (تِفْجي) ليَخرج في جولةٍ تفقُّديّةٍ ليَستطلِعَ الأحوالَ وما حَلّ "بالمَطامير"، وهل صَمَدَت"السّدّة" في وَجه السّيول المُتدفِّقة، وكذلك ليُجَدِّد حَفر مَجرى (النّاي) الذي امتلأ بالطِّينِ والحَصى.

كُلُّ هذه الأحداث دارَتْ في ذهنهِ وهو جالسٌ يضربُ الجمرَ "بالماشا" ليَزيد وَهج النَّار في الهَشيم الذي بدأ طرفهُ الآخر يُخرِجُ زَبَدًا أبيضَ من شِدَّةِ الحَرارة، أخذ "عيد" رشفةً طويلةً من كأس الشّاي مُعلنًا صرفَ النَّظرِ عن فكرةِ الخُروج في هذا البرد الشَّديد والمطر الغَزير، غير أنّ زوجته أوقَفَتْ دَوَران الرّحَى بصورةٍ مُفاجِئَةٍ لتقولَ له:

–"الصِّمِيل فاضي يا عيد".

ثُمَّ أدارَت الرَّحى ليختلطَ صوتهُ مع صوتِ اشتِدادِ هُطول المَطر، مُسْتَمِرّةً في عملِها وهذا يُوحي أنّ العشاءَ لهذه اللّيلة "جريشة"، بعد

أنْ صرفَتْ هي الأخرى النَّظرَ عن الـدِّيك الموعـود إلى ليلـةٍ أشَـدُّ بـردًا ومَطرًا.

لم يرُدّ عليها عيد، بل أطرَقَ صامتًا كَمَنْ يُرتِّـبُ لأمـرٍ لم يكُـن في الحُسبان، وأخذ يُفكّر في "الهَرابـة" والطّريـق إليهـا في هـذا الوَحـل، و"البَرْذَعَة" الـتي ربّمـا ابتَلَّـتْ فتـضاعَفَ وزنهـا، والحِمـار والـبرد، وبنظرةِ المُحاربِ الذي لـيس لديـه مـا يخـسرهُ، وَدَّعَ الـدِّفْءَ مُـشيحًا بوَجهِهِ نحو فتحةٍ في (الحَظْنة) وانتصبَ واقفًا وقَدْ عقـدَ النِّيَّـةَ علـى الخروجِ وهو يُعَزّي نفسهُ بمقولة:

– "اللّي ما عِنّهْ ما عِنّهْ".

ولمحَ ابنته نايفة في مَنامهـا وقـد نـصبَتْ لِحافهـا في شَـكلِ خيمـةٍ صغيرةٍ يتوسّطُها "المِنْساج" عَمودًا لها، وكان سيُوصيها بعـدمِ اللّحـاقِ به، ولكنّه تراجعَ حـين سمعهـا تُحَـذِّرُ لُعبتهـا (العاجـة) مـن مَغبَّـةِ الخروجِ حافيةً في هذا البرد.

إبداعات أطفال البادية

يُحكى أنّ ...

الخميس لم يكن يومًا عاديًّا منذُ القِدَم، الخميس يومٌ ينتظرهُ الطّفلُ البدويُّ القديمُ بفارغِ الصّبر، ليبدأ عندَ عودتهِ من المدرسة رحلةً أخرى لا يعرف فيها الكَلل ولا المَلل، وفي تلك الرّحلة يُخطِّطُ ويفكّرُ ويُبْدِعُ ويُنتِجُ، رحلةُ البحثِ عن مصادر شحيحة جدًّا لِما يحتاجهُ لألعابه.

كما أنّ مُمارسة هواية صيد العصافير تُعَدُّ الأشهر والأكثر إثارةً ومُتعةً وجهدًا أيضًا، وجُرأةً وفراسةً وصبرًا، وهُنا بالذّات تتَجلّى مَهارة وذكاء وعبقريّة الطِّفل القديم في صُنع الوسائل واختيار المناطق وتدبير المَكيدة من خلال لُعبةٍ للتّسلية، ولكنّها في غاية الصّعوبة مُقارنةً بأيّامنا هذه.

و"الفَخّ " هو بحدّ ذاته جهاز إذا جاز التّعبير في قمّة التّعقيد بالنّسبة لطفلٍ في العاشرة من عُمره أو أقلّ، وهذا عادةً الجيل الذي يبدأ الطفل البدويّ مُجابَهة الحياة بقواهِ الذّاتيّة وأفكاره وإظهار إبداعاتهِ، لذا فالفخّ يحتاج إلى صناعة شيءٍ من لا شيء، كسائر الألعاب في ذلك الوقت، إذ يتطلّب من الطّفل البحث لساعاتٍ رُبَّما

عن سِلْكٍ معدنيٍّ بمواصفاتٍ خاصّة، ليس بالرّفيع ولا السّميك، ثمّ تقطيعهِ بأطوالٍ وقياساتٍ دقيقةٍ، لا سِيّما شكلهُ الهَندسيّ الذي بدونه لا تُطبِق أنصاف قُطْر الدّائرة على بعضها، بالإضافة إلى الشّريط، ذلك السّلك المعدني الرّفيع الذي يُشَكّلُ قوّة الإطباق وشدّةِ وسرعة الْتِقاء القوسين عندما يتمّ تحريك الطُعم في طرف "الكَرْزَم" وهو بمثابة الزّناد في السّلاح.

كُلّ هذا وأكثر يصنعهُ ويُبدع في تحسينه الطّفل البدويّ، كما أنّ عليه إجراء العديد من الاختبارات قبل الشّروع في "لُعبة الصيد"، ولا تخلو تلك التّجارب من "إصابات العمل" و"النيران الصّديقة"، ولكن كُلّ هذا يهون في سبيل أن يكون المُنتَج في غاية الدِّقّة والقوّة والتَّمَيُّز.

وعن المكان الذي يتمّ نَصْب الفخّ فيه فهو غالبًا ما يكون بعيدًا عن البيت، والأفضل عند البيادر (الجْرون) حيث تتواجد عادةً أنواع كثيرة من العَصافير،

وبعد "بناء الفخّ" ووَضْعِ طُعْمٍ جيّد في "الكَرْزَم" بحذرِ شديد (يُفضّل دودة تتحرّك) كي تجذب العصافير أو حبّة كبيرة بارزة، ومن ثُمّ اتّخاذ كُلّ وسائل التّمْويه وخطط الخِداع وكمائن المُراقبة.

ويبدأ الانتظـار .....

الطريق إلى غزَة

صباحٌ رائعٌ وهادئٌ جدًا كان بداية ذلك اليوم، والشّمسُ مُشرِقةٌ تُرسلُ أشعَّتها إلى داخل "الشِّقِّ" كأنَّها تُلِحُّ في إيقاظِ شابٍّ عِشرينيٍّ دفنَ نفسهُ تحت لِحافٍ سَميكٍ فيما برزَتْ إحدى قدَمَيْهِ عند آخره.

هذا الهُدوءُ الصَّباحيُّ في "العِزبة" الذي يَنعمُ به "عيد" لا يقطعهُ سِوى نَقنَقة الدَّجاج في مَفَاحِصهِ خلفَ "الرّواق"، وكذلك مُحاولات أمّه المُتَكرّرة لإيقاظِه، وأيضًا صوتها وهي تَنهرُ قِطًّا غريبًا يَقتربُ باستغرابٍ إلى كيس "الجِرْجِب" المُعَلَّق في أحد أعمدة الخَيمة.

وما زالتِ الشَّمسُ تُقَلِّبُ "عيد" بحرارتها حتَى أجبرتْهُ أن يرفعَ اللِّحافَ ويجلسَ مُتَربِّعًا في مَنامِه كأسيرٍ يَرجو فَكَّ أسْرِهِ، يَفرُكُ عَينيه بالتَّناوبِ ثُمَّ يَنظرُ أمامهُ لحظات طويلة فيما يُشبه الذُّهول والدَّهشَة.

عدّةُ دقائقَ مرّتْ على هذا الحال دونَ حِراك وعلى صوت أمّه في أحدى غاراتها عليه لتُوقظه بدا كمن استعاد ذاكرته، فاليوم كما هو مُخطّطٌ لديه "مشوار" إلى مدينة غزّة لإضافة بعض الكماليّات لسيّارته الجديدة كالسّتائر والزّينة وبعض "الغوايش" وسمّاعات قويّة للمُسجّل ومصابيح صغيرة، فهذا "التّكسي" جديد (من القُرطاس) الذي كلّفَ العائلة نحو عشرين خروفًا وخمس نعاجٍ، وذلك ليبقى "عيد" في

حضن العائلة يرعى مع أبيه ويأتيهم بالماء في الصّهريج من مزرعة قريبة ويخدمهم في كلّ مناحي الحياة.

لم يكمل عيد كأس الشّاي وأشعل سيجارته، وانتعل صَندلَهُ، فالغداءُ اليوم كبابٌ شهيٌّ في مطعم "أبو جميل" بالقرب من سوق "فراس"، ركب "التّكسي" وانطلق مُخَلِّفًا وراءهُ أعاصير صغيرة من الغبار واقفة لا تبرح مكانها، وصوت "فهد بلاّن" يصدح:

"يا بنات المُكَلاَّ".

بين الأمل والانتظار

ويَنطلقُ "عيد" الصّغير حافيَ القدَمَيْنِ يَهُزُّ ذِراعَيْهِ بسُرعةٍ وهو يَصعد سَفح "البطين"، وكلّما خَطا خطوَتَيْنِ واسعتَيْن شَدَّ طرف بنطالِهِ إلى أعلى ثُمَّ يتابعُ هَرولتهُ نحو طريق العائدينَ من السُّوق (الوَطَّايين).

ومن بعيدٍ تتراءَى في أفقِ عالَمِهِ الصّغير سيّارةٌ قادمة تتبعها زوبعةُ غبار، تسيرُ ببطء، أو هكذا يخيَّل له أنها تبدو أبطأ من لَهفتهِ بكثير، يقفُ قليلاً على (المُشراف) ولكن قلبَهُ الصّغير لا يحتمل الصّبرَ ولا الانتظار، هي دقائقُ مِمّا نعدُّ ولكنّها ساعات طوال في نظر عيد، فيُواصِلُ رَكضَهُ المُتعَرِّج بخفّةٍ بين الحِجارةِ وكُثبانِ الخُلْدِ النّاعمة التي لا تسلمُ من توقيعهِ بأثرٍ من قَدمِهِ الصّغيرة، وما زال يركض والسَّيارةُ تقتربُ حتَّى كادت أن تصل إلى نُقطةٍ يعرفُها حقّ المعرفة. هنا تسمّر عيد في مكانه وخفق قلبُه بين مهابة ورجاء؛ فإن جاوَزَتْ تلك النقطة فالحَظُّ عاثِرٌ، وإذا توقّفَتْ فالخيرُ والآمالُ والبَهجةُ والسّعادةُ وقلائدُ القُطَين والقرْشَلّة كُلّها فيها، وكذلك الحِذاءُ الذي أوصَى أن يكونَ بثلاثةِ خُطوطٍ على جَنْبَيهِ.

وها قد تَوقَّفَتِ السّيارة فيما استمرّتْ زوبعةُ الغُبار بالمَسير،

لحظاتٌ عصيبةٌ تَمُرُّ على قلب عيد، مَنْ ومَتى ولماذا تـأخَّرَ نُـزول أيّ أحدٍ، ما هذا التّأخير وما المُشكلة؟

وفَجأةً...

يَتَدَلَّى كيسٌ من الصُندوقِ الخَلفيِّ "للتّنـدر"، كـيسٌ كـبيرٌ رمـاديُّ اللون يُزيِّنهُ خَطٌّ أحمرُ، تُمسِكهُ يدٌ يعرفُها عيد حقّ المَعرفة.

إلى المدينة

كان يومًا حارًّا وجافًّا منذُ بدايتهِ، والسُّعالُ قد أثقلَ على الصّغيرة "نايفة" فمنذُ يومينِ وهو يُلازمُها ليل نهار حتَّى بُحَّ صَوتها واحمرَّت عيناها وانتفخَتْ أوداجها ولم يتحسّن حالها رغم كل ما أعَدَّتْهُ لها أمّها من علاجاتٍ كالشّيح المَنقوع والجَعدة المَغليّة وغيرها من الأعشاب، فقرّر عيد أن يأخذها إلى العيادة.

أركبها أمامَهُ على الحِمار متّجهًا إلى العيادةِ التي تبعُدُ مسيرةَ ساعة، وعندما وصلا فحَصها الطبيب، ثمّ أعطاه ورقةً وقبل أن يسأل عيد عن أمر الورقة قال الطبيب:

-"بيروخ يعمل صورة دَروري".

ناوَلَهُ عيد أجرة الكَشفيّة وحملَ ابنته بين ذراعَيْهِ وعاد بها إلى الحمار وركِباهُ وانطلقا إلى الشارع العام حيث سينتظران الباص الذي سيوصلهما إلى المدينة ومنها إلى المستشفى الكبير هناك، وقد ازداد قلقه على ابنته، فالأطباء يرسلون المريض للتحاليل أو الصورة إلا لحالةٍ مُستعجلةٍ أو مرضٍ فيه خُطورة.

المحطَّةُ مكانٌ مُتَعارفٌ عليه على الطريق العام، يأتي الباص دون

مواعيدَ مُحدّدة والانتظار هو فَرضٌ على كُلّ من أراد السَّفَرَ إلى المدينـةِ لا سيّما من مناطق البادية، كذلك هو أمر عيد وابنته.

طُبولُ الحَرب

الحالُ لا يُطَمْئِنُ والأخبارُ والتّحليلاتُ تزيدُ الطِّينَ بِلَّة، والقَلقُ والتَّرَقُّبُ سَيِّدَا المَوقفِ في هذه الأيَّام، "وعيد" يُتابعُ الأخبارَ والمُستجِدّات باهتِمامٍ شَديدٍ، فلا تَفوتهُ نشرةُ أخبارٍ أو خَبر عاجل، يَتنَقّلُ ما بينَ "الجزيرة" وأخواتها من القَنواتِ الإخباريّة، يُعَقِّبُ على كُلِّ خَبرٍ بِمَعنَويّاتِ فاقدِ الأمل، يُخَسِّئُ لكل حاكمٍ أو زَعيمٍ يُطِلُّ عبرَ الشّاشَةِ، وبِعِزَّةِ الذي ليسَ لَديهِ الكثير ليَخسرَهُ يُحدِّثُ نفسَهُ بصَوتٍ مَسموعٍ بأنّها (خربانة من زمان) وما لها إلاَّ الحرب، وبين خَبرٍ وآخَر يُجمِلُ ما وصَلَ إليه بِجُملة: (ما ظل فيها فايدة).

و"نايفة" التي لم يُعجبها هذا الوَضعُ منذُ البارحةِ فقد حُرِمَتْ

حصّتَها من مُشاهدةِ "سبيستون" وفشلَتْ كُلّ مُحاولاتِها لإخفاءِ جهازِ التّحَكُّمِ عن أبيها، وما زالت تَبحثُ عن حيلةٍ أخرى.

من مُذَكّرات الرّاعي

استَيقَظَ من نومهِ على أثرِ حُلمٍ جميلٍ وَدّ لو اكتملَ، ولكنّ ثُغاءَ العَنْزةِ كان أشَدّ من صوتِ ذكرياتهِ وأقوى من زَغاريد "وطفى" راعية الغنم التي كانت تُزَيِّنُ خَلفيّةَ حُلمهِ الجَميل، تلكَ التي أحَبَّ هَيْئَتَها من بعيد وما زالَتْ تزورهُ في أحلامهِ بعدَ هذهِ السّنين الطّويلة.

نظرَ إلى "مراح الغنم" من خلفِ وسادتهِ العالية فكان كُلّ شيءٍ على ما يُرام، وعلى ثُغائِها الثّاني قامَ واتّجهَ نحو مصدرِ الصّوت ليَجِد العَنزة قد "تَوَهّنتْ" (ربضت فمالت ولم تقدر على الوقوف)، فَسَنَدها وبنظرةٍ الْتِفافِيّةٍ ثاقِبةٍ تَأكّدَ أنّ الجميعَ بخير والعددُ مُكتَملٌ، وعاد إلى فراشهِ بعد أن طار النّومُ من عينيهِ وحاوَلَ عبثًا أن يَنعَسَ

لِعَلّهُ يلْحقُ بقايا حُلمهِ ولكن لا جدوى، تَقَلّبَ قليلاً والصُّبحُ أوشَكَ على الانبلاجِ فآثَرَ أن يبدأ يومهُ مُبَكّرًا فأشْعلَ النّارَ ليُعِدَّ القهوة.

وفي لحظةٍ من هذا الهدوءِ الذي يجودُ به سِحرُ البادية الشّمّاءِ هاجَتْ به مشاعر الحنين والشّوق حينَ رأى لَهيبَ النّارِ يتراقَصُ فتتطايَرُ منهُ الشّراراتُ مُبتعدَةً ثُمَّ تنفجرُ مُختفيةً ورائحةُ حطب "الرّتَم" تملأ الجَوّ القريب حولهُ مِمّا جعلَ الكلبُ الذي افترشَ البَرْذَعَةَ يستَيقظُ هو الآخر شاكّاً أنّ شيئًا غير عاديّ هذا الصّباح، وعلى أزيز الماءِ في "البَكْرج" الذي بدأتْ ترتفعُ منهُ فُقاعات تُبشّرُ باقترابِ الغَليان استرسلَتْ به القوافي لذكرى الأحَبّةِ فأنشد هذه القصيدة البدوية:

كُل ما جَتْ فَراشة ولهَمْها طير
هَزهَز نار الفتيلة ومَيّل لظاها
يا قلب ذكراك عندي لَهْ نواطير
أسأل طيري عن أشواق لكْ خَذاها
علوم الأحباب عن بعضها قناطير
وعلومك من عندي مقطوع رجاها
تُذكُر يوم شفتك تسقي على البير
يوم لمحْتني رميت الدّلْو وِرْشاها
ولولاك احْرَفْت باب الحَيا تحذير

كان أسقيـت عنّـك الطَرْش وِحْشـاها

ذاك الزّمان اللي فيه الحيا تخديـر

مثل سهم(ن) يصيب العيـن يَنحـاها

تذكُر رجوم(ن) رسمْتَها لـك تقديـر

وزغاريتك بْروس الحمَاد لَجْلَج صداها

أذْكرَك مع طلّة الصّبـاح والتّباشيـر

وكل مـا شبّيت النار وشعشعْ سَناها

الحُبُّ اليَتيم

لم يكُن في ذهنِ "نايفة" هذا الأمر ولم تكترث كثيْرًا لوجود "عيد" في أعالي "البُطنان" وهو يعزفُ على نايه، كانت تظُنُّ أنّه يرعى قطيعهُ خلف الجبل كَيْلا تختلط القُطعان ببعضها وتتعارك الكِباشُ فيما بينها، ولكنَّ الأمرَ تطوّر فصارَ عيد يقتربُ كُلّ يومٍ أكثر فأكثر وينزلُ إلى سفح الجبل مرارًا وتكرارًا ممّا جعل "نايفة" تتّخذُ وَضعيّة الثَّعلَبة الغَيورة على جِرائها، فكانت تلتفتُ نحوهُ بشِدّةٍ واستغرابٍ ثُمّ تعود إلى طبيعتها وتفعل هذا مرّتين أو ثلاثًا فيفهَمُ عيد أنّه قد تجاوَزَ المَدى وعليه تحويل مَساره نحو الوادي.

وفي يومٍ لم يظهر لها عيد في مكانه المُعتاد وغابَ صوت النّاي الذي كان يُبَدِّدُ سُكونَ المَراعي، لم ينقبض قلب نايفة ولكنّها دون إدراكٍ أخذت تسترقُ النّظرَ من تحت "قُنعَتها" فلا ترى شيئًا وتُعود لتُفكّر في أمر غياب عيد، وبعد أن عَلَتِ الشّمسُ وصارت في كبدِ السّماء وقفت مُعتَلِيَةً تَلّةً صغيرةً وأطلقَتْ زغرودةً طويلةً تَجَلجَلَ صَداها في أرجاء "الحمَاد" حتّى أثارَت فُضول الحَجَلِ المُستَظِلِّ بين الحِجارة فأخذ يتمَشّى شاكًّا في الأمر.

أمّا عيد الذي كـان مُختبئًـا طـوال هـذا الوقـت خلـفَ شُـجَيرات "المِتْنان" ويُراقب مُجريات الأمور فقد دَقَّ قلبهُ دَقّةً لم يعهدها من قبل عند سماعه الزّغرودة، واعتراهُ شُعورٌ جميلٌ لمْ يستطع التّعبيرَ عنه إلاَّ بمَدِّ يَدِ العَونِ لحَلزونٍ كان يتسلّقُ ورقة "صْوَيّ" فأمالها لهُ.

وهكذا أيقن عيد أنّ شيئًا ما قد حصل وأنّ مُغازلاته عن بُعـدٍ قـد أثمرت وحان وقت الاقتراب أكثر، فصعد من جديـد إلى قمّـة الجبـل وأطلق لِشفاههِ العنان لتنفُخَ في النّاي أشـجى الألحـان وأعـذبها بينمـا كانت نايفة تجلس كأنّ شيئًا لم يحدُث.

وتمضي الأيام على هذا المنـوال، كُـلّ يـومٍ يـأتي عيـد ويعـزفُ حتّى يبتلّ النّـاي مـن ريقـهِ، وحـين يغيـبُ – وتعلـم هـي قـصدهُ – تَستَدعيهِ بزغزودةٍ جديدةٍ أجمل من سابقاتها، وفي يـومٍ اشـتدَّ عليـه الوِصالُ وقرّر أن ينزل إلى سفح الجبل ويقترب أكثر ما يـستطيع علّـهُ يرى شيئًا من هيئتها وفي أحسن الأحوال قوامهـا أو نـصف وجههـا، فتفاجأت نايفة به في النّاحيـة الأخـرى مـن الـوادي فوقفـت وقالـت بعصبيّة وهي تمسك حجرًا في يدها:

– "أيش بتدوّر يا زلة" ؟

لم يلتفت عيـد ناحيتهـا بـل واصَـلَ سـيرهُ وهـو ينظـر إلى الأرض

وقال:

– "بَدَوِّر قَعَفُور".

ولكي تصدّق نواياهُ أخذ يحفر بالنّاي فانكسر النّاي في يـدهِ فرَمـاهُ عيد وذهب إلى قمّة الجبل واختفى ولم يظهر لعـدة أيّـامٍ ممّـا جعـل نايفة تقلق لهذا الغياب وتمضي الأيّام والزّغازيد لم تعُد تجدي نفعًـا، ولم يبقَ لها ذكرى من تلك الأيّام إلاَّ النّاي المكسور.

تعويلة

(خصام)

بعدَ مضيٍّ ثلاثة أيّـامٍ علـى مُغادرتِهـا البيـت رأى "عيـد" أنَّ مـن واجبهِ أن يذهبَ إلى أهـلِ زوجتـهِ ليُراضـيها ويُـصالِحها ويُعيـدها إلى البيت، لا سيّما أنَّ بيتهُ بدأ يفقدُ رونقهُ الأنيق المُرَتَّب، كمـا أنَّ غُبـار "المَعاصير" بدأ يَكسو الأواني والأغراض التي تُرِكَتْ على حالهـا منـذُ تلك اللّحظة التي تركَتْ زوجتـه البيـت "معَوّلـة"، بالإضـافة إلى أنّـهُ أصبح ساحةً "للدّوارج"، حتّى القطّة وجدت لها مكانًـا آمنًـا ومريحًـا فوق "العِدّة".

امتطى عيد صهوة "التَّندر" وانطلقَ نحـو ديـار "النّـسايب" يقطـعُ الفيافي والقِفار و"البُطنـان" والأغـوار، ينهـب الـدرب الترابيّـة نهبًـا، مخلِّفًا سحابةً من الغُبارِ الكثيف الذي يلفح جـانِبَي التنـدر ولا يلبـث أن ينفذ إليه عبر النّافذةِ المشرعة ويخرجُ من الأخرى، وعيد غير مُبالٍ لهذا كُلّه، فقد تَلثَّمَ بمنديلهِ وأطلقَ ليُسْراهُ العنان مع طول الباب.

بدأت تَتَوارَدُ في ذهنهِ أفكار تِلوَ أفكـار، حـول كيـف سـيُقدّمُ لهـا الاعتذار، وهل سيقبلُ أهلها بما جَرى وصار، وكيف نقلَتْ هـي لهـم الأخبار، ولكنّهُ يعلم أنها لن تستغني عنه بسهولة، فَكُلّ ما في الأمـر

كـان أنّهـا أقَـضَّتْ مَـضجعهُ وقـت القَيلولـة، وطلبَـتْ منـهُ أن يـضعَ "خَيْشَةً" مَبلولة، على برميل الماء لِيبقى باردًا ولطيفًـا، في حَـرِّ بدايـة الخَريف، وتَشَجَّعَ قليلاً عندما هَمَزَ المُسَجِّلَ فصدَحَ له صوت (نادية مصطفى) بأغنية" الصُّلح خير" من شريط المُنوّعات، فاطمَأنّ وَارتَسَمَتْ على شَفَتَيهِ ابتسامة تَبعَها الغَيار الثّالث فـالرَّابع، والحِجـابُ المُطَـرَّزُ المُعلَّقُ في المِرآة يتأرجَحُ كاد أن يصفعَهُ على جَبينهِ كُلّ مرَّة يهتزُّ فيها.

وصـلَ إلى "ديـار النّـسايب"، رَكَـنَ "التَّنـدر" ونـزلَ وسَـلَّمَ علـى "الشّايب"، الذي رَحَّبَ بهِ أجمل تَرحيب، وأجْلَسَهُ في مكانٍ قريب، وقَدَّمَ لهُ القَهوَةَ والتَّمْرَ والزَّبيب، فُوجئَ عيد بهذا العَمـل، وتبـادَرَ إلى ذهنهِ ما يُخيّب الأمل، بأنَّ شيئًا ما قد حصَل، فَمـا لِهـذا الاسـتقبال من تفسير، سوى خطّةٍ أو تَدبير، لُعاقَبةٍ أو ضَرْبٍ وتَكسير.

سألَ عن زوجته فقـال لـه "الـشّايب"إنّهـا هُنـا منـذُ أن أوصَـلْتَها وكنتَ مستعجلاً في سَفرٍ، وستبقى هنا أسبوعًا آخَر كما اتّفقْتُما.

ابتسمَ عيد ابتسامة أزاحَـتْ عـن كاهلـهِ كُـلّ الأجوبـةِ الـتي كـان يستعدُّ للإدلاء بها، وقال:

– لِتَبْقَ إذَنْ عندكُم حتّى أعودُ من سَفرةٍ أخرى بعد شهرٍ، حيـثُ تَسَلَّمْتُ اليومَ "نَطرة" في منطقةٍ بعيدة وجئتُ لأخبرها بذلك.

لم يَرُدَّ "الشّايب" عليه ونادى بأنْ يُعجّلوا بالغداء، وفي هذه الأثناء سمع عيد زامور "التّندر" فالْتَفَتَ نحوهُ وإذا بزوجتهِ تجلسُ فيه، وفي الحال قفزَ عيد تاركًا "الشّايب" وكالسَّهمِ كان هو الآخر داخل "التّندر"، وما أن تحرّك "التّندَر" حتّى سمعَ "الشّايب" يُنادي عليه:

– "صَنْدَلَكْ يا عيد"...

فأخرجَ "عيد" رأسهُ من النّافذة وقال:

– "مبروك عليك".

مواسم ومناسبات

يومُ خَميسٍ آخَرُ جَميلٌ، وطَقْسٌ رَبيعيٌّ هادئٌ أيضًا، رائحةُ حقول الحِنطَةِ والشَّعيرِ تَملأُ الأجواءَ وَلَوْنُ رُؤوسِ السّنابلِ أخذ يَميلُ إلى الصُّفْرَةِ قبلَ الأوان والسِّيقانُ القَصيرَة ما زالَتْ خَضراءَ كأنَّها لم تَبلُغْ أشُدَّها بعدُ.

وأمامَ "الشِّقِّ" يَقِفُ "عيد" كالصَّقْرِ مُرَحِّبًا بالضُّيوفِ المَدعُوِّينَ إلى وَليمَةٍ أعَدّها بُمناسَبةِ الانتهاءِ من جَزِّ الصُّوفِ (القْصاصة) لِهذا العام.

وَبَيْنَ تَرحيبٍ وتَهليلٍ بِقادمٍ جَديدٍ تَنقطعُ حِكايةُ أحدِ المُسِنِّينَ المُجَرّبين فيعودُ لِيُتِمَّها مُسْهِبًا في تَفاصِيلها وسطَ إصغاءِ الجَميعِ لهُ وتَعقيباتٍ مُعَزِّزَةٍ من بَعضهم، فيما يَقتربُ "عيد" من بعض "الْحِلّيِّة" وبَغمزَةٍ من عَينهِ تُرافِقُها إشارة من إبهامِهِ يَخرجونُ مُتَّجِهينَ إلى حيثُ يَتِمُّ تَجهيز الطَّعام، وَهُناكِ يُمسِكُ أحدهم "المسواطةَ" الخَشَبيّةَ الطّويلة فيُحرِّك القِدْرَ باحثًا عن "الذّراع".

"يجعله واصـــل".

غُبارٌ مِن طَرَفٍ واحِد

على صَوْتِ "شفيق كبها" ومَوّال "اللّي مضيّع ذهب بسوق الذّهب يلقاه"، ينطلقُ "عيد" في "التّنْدر" يَميلُ برأسهِ مع كُلّ مَدّةٍ وإطالَةٍ في المَوّال الطَّرُوب، والرّيحُ تَتلاعَبُ بِشَعْرِهِ الطَّويل، فَتُقَلِّبُهُ في كُلِّ جِهةٍ حتّى لم تَعُد شَعْرة عندَ أختِها، فتذهب تَسريحة "الشّاليش" الذي تعبَ عليها طَويلاً في الصّباح هَباءً منثورًا.

أسْرَعَ "عيد" بعض الشّيء مع الطّرُق البَرِّيَّةِ وهو لا يَدْري هل وَرَدَتْ "نايفة" بقطيعها أم لا، وهَل هيَ وحدها أم يُرافقها "الشّايب" على حِمارِهِ "الأرْبَد"، ولكن ما الضّيرُ فَفي كُلِّ الحالاتِ هو يَمُرّ بَعيدًا عنها، ويَكفيهِ أن يراها في مُقدِّمة القَطيع، أمّا هي فليسَتْ على عِلمٍ بما يُشغِلُ بالَ "عيد" ولم تشعُر بوجوده بعد.

يُشفِقُ الحَظُّ العاثِرُ على حالِ "عيد"، ويَمنحَهُ فُرصةً تُساوي كُلَّ "سوق الذّهب" الذي غَنّاهُ المَوّال، فيَرَى من بعيدٍ إعْصارَ الغُبارِ المُتَصاعِدِ من تحتِ أقدامِ القَطيعِ، وما إن صارَ بِمُحاذاتِه حتّى حالَتْ بَينهُ وبينَ "نايفة" وقطيعِها سَحابة الغُبارِ الكثيفَة، فَاسْتَمَرّ في طَريقِهِ مُبتعدًا والخَيبَةُ تَملأ قَلبَهُ، وانتَهى شريط "شفيق كبها" فَبَدّلَهُ بما هو

أنسَبُ لمثلِ هذه الخَيبات ألَا وهو المُطرِب "إبـراهيم تـاتْلِس"، وأغنيـة أشبَه بالنّحيب.

غزل البوادي

منـذُ ثلاثـة أيَّـامٍ لم يَـتردّد صـدى "الهْجـيني" في فـضاءِ الـشِّعابِ والجبالِ، ثلاثةُ أيامٍ كأنّهـا الـزّمَنُ المَسروقُ مـن عُمـرِ "نايفـة"، تلـك الصّبيَّةُ التي تَعوَّدَتْ على سَماعِهِ مـن بعيـدٍ والاسـتئناسِ بـه، حـين يُطلِقُ "عيد" العنان لِحنجَرَتِهِ وهو يَعتَلـي "قعـودهُ" في رحلـةِ تَجوالـه الدَّائمة التي يُرَوِّضُ (يُطَبّع) فيها "القعـود" الـشَّرود، تُـرى مـا الـذي جعلهُ يغيبُ فجأةً وقد كان يَمُرُّ أكثر من مَرَّةٍ في اليومِ من المَراعـي ومـا أن يرى "زول" نايفة مـع قطيعهـا حتّـى يـصدحُ "بـالهجيني" إلى أن يَميلَ خلفَ الجِبالِ ويختفي عن ناظرَيْها.

واستمَرَّ الحالُ أيضًا في اليومِ الرَّابعِ والخامِسِ، وَدَبَّ القلقُ في قلبِ

نايفة على المُغازِل الهَجِّانِ الظَّريفِ الذي طالَما لَمّحَ في قَصيدِهِ عن مدى إعجابه بها. وقرَّرَتْ أن تتركَ هذه النّاحية من المرعى التي كانت تَتَعَمَّدُ الرَّعْيَ فيها، وتنتقلُ إلى "الحَصايد" ولكنّها أرادَتْ أن تُخبِرَهُ بطريقةٍ ما عن هذا القرار.

وفي الصَّباح عادَتْ بقطيعِها إلى المَرعى وبدأت تجمعُ حِجارةً لتَرسمَ على طريق "عيد" رمزًا إذا ما عاد فحتمًا سيعرفهُ وإن لم يَعُدْ فسَتبقى ذكرى لم يَشْهَدْ على أحداثِها إلاَّ أسراب "الشُّنَّار" التي تَفِرُّ مُبتَعِدَةً عن طريق "عيد".

وما أن أنهَتْ ترتيب الحجارة وإذا بصدى الهجيني يَملأ أرجاء البادية وقد أقبلَ "عيد" من بعيدٍ يقودُ "قعودهُ" فابتسمَتْ وفرحَتْ كفرحَةِ ليلة عيد.

وما كان غِيابُ "عيد" عنها إلاَّ لأنّ "القعود" جَفلَ فأوْقَعَهُ شرّ وَقعَةٍ وهرب.

يوميّات ناطور

بعد أسبوعٍ من اختفاء خُبز "الشَّخور" بسبب "عيد الفصح" عند اليهود عاد الحالُ إلى ما هو عليه، وها هو "عيد" النّاطور يضطجعُ في ظِلِّ "التّراكتور" يقضي وقت قيلولته مُمَدِّدًا قدمَيْهِ بعد أن أفطرَ من خُبز "الشّخور" مع الشاي، ورائحةُ بقايا الشّواء المُنبعثة من "الشَّبَك" بجواره تملأ المكان بعد أن سَخَّنَتْهُ الشّمس الحارقة، حيثُ كان "الشَّبَك" اللّيلة الماضية مَسرحًا لاحتفاليّةٍ مَهيبةٍ تَخلّلَها عَرْضٌ شَهِيٌّ من "الجناحِين" و"أصابع الكباب" بحضور عددٍ من زُملاء المِهنة من "نَطرات" مُجاورة.

فمنذُ أوّل أيّام "عيد اليهود" لم يذُق صاحبنا خُبز "الشّخور" اللّذيذ مع الشّاي، أو حين يخرج اللُّبَّ الإسفَنجيّ من داخله ويأكلهُ ثُمَّ يملَأ نصفهُ بما تَيَسّر، وقد أتعبَهُ العَجْن لتحضير (اللّبّة، الكعكة، القُرص، العَربود، وأسماء كثيرة حسب اللّهجات والمناطق).

ما زال النّاطور "عيد" يشعر بالإرهاق والنُّعاس أيضًا وذلك بسبب ما جرى بعد العَشاء الدّسم، لا سيّما بعد "التّعليلة، حيث قام بالتّعاون مع ضيوفه بتنفيذِ أعتَى الخُطط وأخطرها ألا وهي شفط

برميل "سولار" لكُلّ ضيف، وهـذه الخطّـة تقـع ضـمن الدّرجـة قبـل الأخيرة حسب مقياس "النّـواطير" وهـي شـفط الـسّولار مـن "التّنـك" وبعدها إعادة ضبط المُؤشّر إلى ما كان عليه.

انقلبَ النّاطورُ على جنبهِ ليَستريحَ ويَـنعس وهـو ينظـرُ إلى قوافـل النّمل تحومُ حـول "مَجْمَـع الـسُّكَّر" دون جَـدوى، وعلـى مُقربـةٍ مـن برميل الماء المُغَطّى تدورُ "عمة الذّيب" (نـوع خَنـافس) منـذُ البارحـة على ما يبدو ضَلّتْ طريقها الذي لا تعرفهُ، وحول المائدة بقايـا عظـام "الجناحِين" المُتَناثرة كَهَياكِلِ جُنـودِ جـيشٍ مَهـزومٍ في سـاحةِ حـربٍ طاحِنة.

نوم الهَنا....

"عيد" المشاغب

لم يُصدّق عيد زميلهُ حين سمعهُ يقول:

– "والله إلاَّ أجيب لك أمّي".

وذلك بعد أن أشبَعَهُ "عيد" ضربًا على مُؤخّرة رأسه بالدّفتر وأحيانًا بالمسطرة، فما أن يلتفت أمامَهُ حتّى يتلقّى صفعةً أخرى.

انتهى الدّرس وَعَمَّتِ الصّفّ تلك الفوضى المعهودة والتي يتغيّرُ فيها كلّ شيءٍ عن مكانه ما عدا الأرضيّة واللّوح، وبدأ الدّرس التّالي وعاد كُلّ شيء إلى وضعه، فنظر عيد إلى المقعد الخالي أمامَهُ مُستَبعِدًا أن ينفّذ زميله تهديده وما هي إلاَّ دقائق حتّى سمع لؤي حَشْرَجاتٍ وشهيقٍ وزفير وصوت "حفاية" تَطْرُقُ الكَعْبَين طَرَقاتٍ مُتَقاربة وهَمهمات تعلو وتهبط.

لم يرمش عيد وما زال فاغرًا فاه وهو ينتظر بروز الحَدث المُقبل من الخارج، وفجأةً أظلَمَتْ فتحة الباب ورأى امرأةً ضخمةً تَشَبَّثَ منديلها بمُؤخّرة رأسها الغارقُ بين كتفَيْها، كانت بدينةً جدًّا حتّى أنّها حينما دخلت ارتطمت أردافها في حَوافِّ الباب من النّاحيتَيْن فكادت أن تقع، كانت تمشي وكلّ شيءٍ فيها يَرْتَجُّ وكأنّها تجّرُ

حِمْلاً ثقيلاً خلفها، وما أنّ دخلت حتَى صاحت:

– "ويـــن هــو" .....؟

أشار ابنها إلى عيد المُلتصقِ في الكرسي وهو يُطلُّ برأسهِ من خلف الطّاولة فوصلت إليه ووضعت كلتا يديها على الطّاولة كأنّها تستريح من مَعركة ضارية وما زال صدرها يهتَزّ وهو يعلو ويهبط، و"عيد" قد وضع يدهُ على جبهته تَحَسُّبًا لصفعةٍ آتيـة لا مَحالـة، ولكنّـه أبقاهـا أيضًا ليَتّقي شَرّ زَبَد المرأة المُتَطاير من فمها وهي تصرخ عليـه وتتوعّـد وتقول كلامًا كثيرًا لم يفهم منه عيد إلاَّ الصّوت العالي والنّبرة القويّة، وكان ينظر بين حينٍ وآخر إلى وجهها فيَرى سيول العرق تَتَجدَّدُ كـل مرّة بعد أن تمسحها المرأةُ بطرف منديلها ويُلاحِظُ خطوط الوَشمِ وهـي تستقيمُ وتنثَني حسب وتيرة الكلام وامتلاء الأشداق واتّساع الأحـداق، وكانت تسأله بين حين وآخر عن اسم أمّه، وهذا كان بالنّـسبة لعيـد خطًّا أحمرَ ويفضّل أن (يأكل الكتلة) على أن يكشف عـن اسـم أمّـه، تعبـت المـرأة مـن التّهديـد والوعيـد وانتقلـت إلى مرحلـة الـشّروط والتّعهدات والبُنود بأن لا يلمس ابنها وإلاَّ سـتذهب إلى أمّـه وتتفـاهَم معها، أمّا المُعلّمة فكانت كُلّ هذا الوقت تُحاول جاهدةً أن تلفِتَ نظر المرأة وهي تنادي في أذُنها ولكن لا حياة لمن تُنادي.

وخرجت المرأة تَنوءُ بحِملِها الثّقيل وهي تقول:

– "ماني عارفة كيف بيخَلّوا الظعوف لحالهم بدون استازيّة ولا معلمّات".

سَجعِيّات مِنْ زَمَنٍ فات

خَطَفَ العَباءَةَ وأشاحَ بها كالوِشاح، وَلَفَّها حَوْلَهُ بارْتِياح، ثُمَّ حَرّكَ كَتِفَيْهِ بإلْحاح، فأخَذَتْ مَكانها بنَجاح، اهْتَزّ داخِلَ ثَناياها، فَانْعَدَلَتْ أطرافها وزَواياها، ونظرَ إلى يَسارِها لِيُوَازيه بيُمْناها، لِتَكْتَمِلَ في هَيْئَتِها وَمَرْآها.

تَحَسّسَ مَوْضِعَ "الشِّبْرِيّة"، وإذا بها مَفقودةٌ غير مَرْئيّة، فتلَمّسَ جوانِبَ وِسادته الطَّرِيّة، فَوَجَدَها حيثُ كانت مَخْفِيّة، وَبِخِفَّةٍ من الإبهام، فَكَّ طرف الحِزام، وأدْخَلها فيهِ بانتِظام، لِتستَقِرّ على الخاصِرَةِ بانسِجام.

ثُمّ تَناوَلَ مَفاتيح "التّنْدَر"، وزوجتهُ ما زالَتْ تَتَزَيَّنُ وَتَتَغَنْدَر،

فتَنَحْنَحَ في الحال بعدَ أن أمَالَ العِقال، واسْتدارَ نحوها وقال:
"شَهّلوا يَلاّ... نمشي بالزُّهْرَة".

سَندَريلاّت من زمنٍ فات

منذُ أن تَعلَّمْتُ القِراءَةَ والمطالَعةَ قرَأتُ مِئات القِصَص وعَشرات الرِّوايات، ودائمًا كان هُناك شيءٌ أستَغربُهُ في مُعظمِها ويَتشابَهُ فيها، وهو أنَّ ابنةَ الفَقيرِ جميلةٌ وابنةَ الغَنيِّ كَئيبةٌ وليسَتْ على قَدرٍ من الجَمال.

وعِندما أرى الواقِعَ من حَولي لا أرَى من هذه المُعادلةِ شَيئًا، فالسّوادُ الأعظَمُ من المُجتمعِ الذي أعرِفهُ هو من الطَبَقةِ الفَقيرة، فأتَساءَلُ: أين الجميلات؟

إلاَّ أنَّني تَذكَّرتُ أنّ نايفة "بسلامتها" حَطَّمَتْ هذهِ المُعادَلة تمامًا، فكانت جَميلةً وغَنيّةً في المَدرسةِ ودَميمةً فَقيرةً في البيت.

فكُنَّا لا نكادُ نعرفُها في المدرسةِ بتَنُّورَتِها المُلوّنـةِ الزَّاهيـةِ وحَـذائِها الأبيضِ ومِنـديلِها اللاّمـع الجَديـد وضَـفيرَتِها المَجدُولَـةِ بكُـلَّ أناقَـةٍ، ورائحةِ صابون (اللُّوكْس) التي لا تُفارِقها، فيما كانت رائحة الصَّابونِ النَّابلسِيِّ تُغادِرُنا نحنُ الأولاد بعدَ لَحظـاتٍ ويبقـى زَيتُهـا في رُؤوسِـنا مَسكَنًا للغُبار.

وخارج المدرسة حين أرى نايفة تَرعى الغَنَمَ أو نَلتقِي صُدفةً عندما نَردُ الماءَ كانت كالوَلَدِ الذي طالَ شَعرُهُ وخَشُنَتْ خُدودهُ، بقايا ضَفيرةٍ مُجَعَّدَةٍ شَعثاءَ، حافيةُ القَدمَين مُتَرَبِّعَةٌ على ظَهرِ الحِمـارِ تَنظـرُ إلَـيَّ مِنْ وَراءِ خُصْلَةِ شَعرٍ مُتَدَلِّيَةٍ تُغطِّي جَبينَها، لو نَطَقْـتُ بكلمـةٍ واحـدةٍ لَرَدَّتْ عَليّ بِشَتيمَةٍ ولو ضَحِكْتُ لَكانَ الرَّدُّ بِحَجَر.

تَعاليل العيد

وما أن يطيبَ المجلسُ وتَهدأ النّارُ وقد تلظّتْ جَمراتُها حتَّى تبدأ متعة أخرى حين يستحوذ أحدهم على اهتمام السُّمّار بـ"سولافة" يُبدِعُ في سَردِها وهو يَحشُو لُفافةَ التَّبْغ بحرَكِةٍ بَطيئةٍ يَتوقَّف عن لَمسها كُلَّما استطردَ في الحديث، ثُمّ يعودُ لِيُتِمَّ حَشْوَها حينَ يهدأ لِلحظاتٍ فيها يَستَلْهِمُ الكلامَ بعدَما ضَمن تشوّق الجميع.

يُتابعُ حديثهُ فيَعلو صوتهُ تارةً ويهبطُ تارةً أخرى حتّى يغدو كالهَمْسِ أحيانًا، كُلّ ذلك وفق أحداثِ الحِكاية وحبكتها وتشعّباتها التي لا تَخلو من المُفاجآتِ المُحْكَمَة وكأنّها نَصٌّ مخطوط، وعادةً ما تُصاحِبُها هَمْهَماتٌ من أحدِ المُستَمِعينَ الذي استسْلَمَ للإثارَة وأخذَهُ الخَيالُ واندمَجَ بكلّ جوارحِهِ، فقد تَراهُ يُشيرُ بيدَيْهِ كَمَنْ يستبقُ أحداثَ "الرّاوي" الذي يجلسُ هُنَيْهَةً ثُمَّ يَميلُ في جلستِهِ إلى أحدِ الجانِبَين ويَسْتَنِدُ مرّةً أخرى وهكذا دَوالَيْكَ، وما زال يَستطردُ: "وكانْ وكانْ وكانْ" وما أن تَصِلَ اللُّفافَةُ إلى شَفَتيهِ لِيُرَطِّبَها بلسانهِ ويعود ليُمَلِّسَها، وفي ذلك استنفادٌ لِصَبرِ المُستمعينَ الجالسينَ الذين ينتظرون نهايَةَ الحِكايةِ على أحَرِّ من الجَمر، حتَّى يجد مَخرَجًا لِروايتهِ بنهايةٍ مُبْهَمة كقولهِ: "وتروووح تالي".

بَينَما يبدأ بمُهمّة تشغيل القَدّاحة لإشعال "قذيفته".

ثَرثارَةٌ لا تَمَلُّ ولا تَكِلُّ

فمنذُ لِقائي بِها تَبدأُ الكَلامَ، لا تَسكُتُ ولا تَصمتُ لِلَحظةٍ، تَعوَّدتُ أن أسمعَها ولا أقاطِعها، أحيانًا أتَوَقَّعُ ماذا سَتقولُ وأحيانًا تُفاجِئُني بِحَديثٍ جَديدٍ وَحِكايةٍ جَديدَةٍ، نَقضي اليَوْمَ سَوِيّةً فلا أشْعُرُ بِمُرورِ الوَقتِ وَكثيرًا ما دَعَتْني لِفِنجانِ قَهوَةٍ واسْتِراحةٍ مَعَ أنّها لا تَشرَبُها، فأشرَبُ أنا على وَقْعِ ثَرثَرَتِها المُتَقَلّبةِ بينَ الجِدِّيّةِ والهَزْلِ، بينَ الظَّرافةِ والأناقَةِ، ولا تَتَوَرَّعُ عَنِ الحَديثِ في النّاسِ وخُصوصِيّاتِهم.

حَديثُها مُمْتِعٌ أحيانًا، ولَها أحيانًا مِزاجٌ لا أقبلهُ صَراحَةً، بلا فائِدةٍ بلا مَعنًى ولا تَوقيتٍ ولا مُراعاةٍ لِحالَتي وَمِزاجي، ولكِنّني أَلِفْتُها كَما هيَ.

هذا الصّباح كالعادةِ تَقابَلْنا في نَفسِ المَكانِ والزّمانِ بَدَأَتْ بالحَديثِ والتَّحِيَّةِ ولكنَّها سَكَتَتْ فَجأةً كالَّتي تَستَذْكِرُ ما يَليقُ بي من كلامٍ لِهذا اليوم، ولكنَّ الصّمتَ طال، وبنظرةِ المُتَسائِل وبشَيءٍ من الفُضولِ نَظَرْتُ إلَيها فَبدا كُلُّ شَيءٍ عادِيًّا، مَلامحها أناقتها واللّمْعَةُ في وجهِها تَنبضُ بألوانِ الحياة.

وعِندما طالَ الصّمْتُ اِستَغرَبْتُ هذا الوضع ولم أُطِقْ صبرًا على نَفسي ودَفَعَتْني كُلّ جَوارحي وأحاسيسي دونَ إدراكٍ مِنِّي أن أستفسِرَ عنِ الأمرِ، اقتربتُ منها وخَفضْتُ رَأسي قَليلاً فشمَمْتُ رائحةَ شَيءٍ يَحترقُ أو على وَشكٍ، تَلَمّسْتُ الأسلاكَ المَوصولةِ وإذا بأحدِ أسلاكِ السَّمّاعَةِ قد هلكَ وأصابَ البَقيّة بتَماسٍّ كَهربائيٍّ.

ارقُدي بسلامٍ أيّتُها "الحَبيبة"، رفيقة السّائقين ومُسَلِّية المُسافِرين.

خَتْم الشِّيخة

يُقيم "عيد" وَليمةً كبيرةً (عزومة) بمناسبة تَسَلُّمِهِ "الشِّيخة"، فيجلس أمام "الشّقّ" على (برميل الصّميل) في الظِلّ قبل العصر بقليل ويُخرجُ "أبو ضو" ودفتره الصّغير من جَيبه ليتّصِلَ بالأحباب والأقارب و"النّسايب" و"كبار الرّباع" وتُجَّار القَشّ وأصحاب المراكز وأهل زوجته الثّانية وأمّها "خَصْ نَصْ" ويُشدِّدُ في المُحادثة بعبارة:

– "هاتوا الشّايب معكو لا تنسوا".

في هذه الأثناء تكون بناته و(بَناتيخه) قد كَنَسْنَ "الشّقّ" فيما قام بعض الأولاد بـنَفْضِ المَفارش وترتيبها (الرّاس عالراس) ووضع (المَراكي) عليها، وهو ما زال يبحث عن الأرقام التي يذكُرها بلا أسماءٍ، بل وضعَ عندها إشارات معيّنة في دفتره لعدم تمكُّنهِ من كتابة الأسماء، فيُجرِّبها واحدًا تلو الآخر حتى أنّه في أكثر من مرّة رَدَّ عليه (كراج مَنْسيّة) في الظاهرية ومرّة أخرى ردّت عليه ابنة تاجر الحطب، هذا عدا عن الأرقام التي كانت تُخبرهُ الشّركة بأنها مفصولة من الخدمة.

يقوم "عيد" بعد أن نادت عليه زوجته الأولى من الدّاخل وأخبرته بأن منديله (المْزَهّرْ) قد جَفَّ وبإمكانه ارتداءه على رأسه،

وخلال عودتهِ لاحظ أنّ (اللاّد) قد أخذوا الخِراف من (الحوش) نحو (بيت اللّحم) فيُنادي عليهم ويقول:

– "إلْحقوهن كمان راس".

يعود "عيد" إلى مجلسه على "البرميل" وفي وَقارٍ وأنَفَةِ ورَباطة جأش واضحة يصفنُ قليلاً كالذي يستذكرُ شيئًا بينما يمسكُ هاتفهُ "أبو ضو" الذي كاد أن ينطق ليقول له:

–"بس عاد، ما ظل أحد وما عزمته، أهلكتني يا راجل".

وفجأة .....

يسمع "طَرْفاشًا" قادمًا من بعيدٍ، وما هي إلاَّ لحظات حتى توقّف "تندر" على مقربةٍ من "الشّق" فيما استمرّت (العَجّة) في طريقها، فتمتدُّ يد السائق من الدّاخل لتفتح الباب من الخارج، وينزل أوّل الضيوف

– "يا هلا مرحب هلا يا هلا بالضيف، مرحباااااااا سَلَامات".

من داخل خيمة النّساء

ومشهدٌ آخر، هذه المرّة من داخل "بيت النِّساء" في الأفراح قديماً حيث يكون التّرتيبُ غير مهم عادةً، فتجلس العَجائز في رُباعيّاتٍ أو ثُلاثيّات مُتقابلات ويُغنّينَ (القْطار) الشّهير وهو غناء بدويّ جميل هادئ منتظِم وفيه مَدّ طويل، بينما تُغنّي بقيّة النّسوَة وقوفًا في دائرةٍ مُتحرّكة أحيانًا أو جلوسًا في حلَقاتٍ يَتناوَبْنَ فيها الغِناء بالأشواط على نفس اللّحن وِفْقَ إشارات معيّنة عند الانتقال إلى لحنٍ أو أغنيةٍ جديدة ويُسمَعُ التّشاورُ والتّلقين بوضوح أحيانًا.

وبينَ هذا كُلّه تتجوّلُ بعض الفتياتِ الصّغيرات بـ"صينيّة الشاي" والحلوى بين النّساء والأطفال – وأغلبهم دون سنّ العاشرة –، وأمّ العريس تستقبل القادمات حسب سماع الزّغازيد من خارج البيت فترُدُّ عادةً بزغرودةٍ تنضَمُّ إليها بعض النّساء ويحتاج الأمر بطبيعة الحال إلى ملاقاة الضّيفة خارج البيت كزيادةٍ في الاحترام والتّرحيب. كمّا أنّ للخَيّالة زغاريدُ يُستقبلون بها حينما يُقبِلون مندفعين بخيولهم في كُلِّ شوطٍ قبالة الخيمة.

غناءُ النّساء البدويّات بسيط وباللّهجة البدويّة وهو عادةً لحنٌ شَعبيٌّ واحد للأغنية يتكرّر بينما تختلف الكلمات وأغلب الأغاني

هي في مدح العريس وأوصافه، وكذلك العروس وأهل الفرَح والنّخوة والأصالة والكَرَم، ولا تُرافقهُ الطّبلة إلا في فترةٍ مُتأخِّرة، وكانت تُستَخدمُ كؤوس الشّاي الفارغة في الإيقاع حين تتحمّسُ مجموعة من النّساء لا سيّما إذا اخترقت الحلقة امرأة وبدأت بالرِّقص، ومن المعروف أنهُ لا يُسمح للبنات غير المتزوّجات بالرّقص، وعندما نقول رقْص هو ليس رقصًا بقَدر ما هو حركة بالأيدي مع قفزة بسيطة تُرافقها خطوات قصيرة تتنقَّلُ وسط الدائرة.

الدَّاء والدَّواء

وفي تلك اللّيلة التي أفطر فيها "عيد" على لحم ديكٍ سمينٍ كان له عُرْفٌ كالتّاج من شِدّة السُمنَة، ولـهُ لمعـةٌ في ريـشهِ المُلـوّن الزّاهـي مـا زادَتْهُ إلاَّ كبرياءً وأنَفةً وغَطرَسَة حين كـان يتـبختـرُ وسـط دجاجاتـه، فأثناء تناوُله العظم الأوّل الذي وقـع في يـده حـين سمـع نـداء: "اللّه أكبر" أرسلَهُ إلى فيهِ رأسًا دون احـتراسٍ وحـذرٍ وأطبـق عليـه أسـنانه فأخطأ أحد أضراسـه في تحاشـي الـصِّدام مـع العظـم فهَـشّمَهُ وسُـمِعَ صوت التّهشيم جليًّا كالذي خرج من أُذُنَيْهِ، شـعر عيـد بـبعض الألم ولكـنّ الجـوع لم يـسمح لـه بالمزيـد مـن الفحـص والتّحَقُّـقِ وواصـل الالتهام، مُتجاهلاً الألم.

شبع عيد وتناوَل الإبريق وكاد أن يُفرِغهُ من شدّة العطـش وعنـدها شعر بألمٍ فظيعٍ في فَكّهِ فبدأ يتأوَّهُ مُغْمِـضًا عينيـه وانطـرح أرضًـا وهـو يُمسكُ نصف وجهه بيديهِ، وكأنّهُ يستسلمُ لغيبوبةٍ قد تُنـسيهِ فظاعـة الألم، ومن حينٍ إلى آخر يلمسُ سِنّه بأصبعه ثم يبعدهُ بسرعة ويقول: "لهلهلهلهله، هِفف".

لم يشرب القهوة كعادته ولا الشّاي بل تلثّم بالمنديل وعصبهُ جيّدًا حول رأسه وشَدّهُ بقوّة من ناحية فَكّيْهِ وبدأ يهذي كالذي يتحدّثُ من

خلف حِجاب، لم تأبه زوجته لما يقول لأنها لا تفهم ماذا يريد، وهو يُحرّك يده بحركةٍ ارتجافيّة، وقبل أن تأخذ المنسف قالت له:

– "خسارة على الوقت، قُم شُفْ لك حكيم بالبدري".

انقلبَ عيد على بطنهِ فور سماعه ما قالت الزوجة، وأدخلَ رأسَهُ بين وسادتين وبدأ يُطلقُ أنّاتٍ خفيفةٍ مُنتظمةٍ، ولكنّ الألم لم يزل يَقُضّ مضجعهُ فيُعاوِدُ التَّقلّب من جديد واستمرّ على هذه الحالة إلى منتصف اللّيل، عندها قرّرَ أن يضع حدًّا لهذه المُعاناة فانتعل حذاءَهُ واتّجه إلى "التّراكتور" الرَّابض أعلى المُنحدَر وفتح غطاء البّطاريّة وبلّلَ طرف منديله وعَضّ عليه بأسنانه حتى تخلّل ماء البطاريّة بين أسنانه. والشّافي ربّ العالمين ...

المغارة المسكونة

يُحكى أنّ..

منذُ زمنٍ غير بعيدٍ كَثُرَ القيلُ والقالُ حولَ مغارةٍ بالقُربِ من مَضاربِ إحدى القبائلِ البدويَّةِ، بأنّها "مسكونة" وأنّها في اللَّيلِ تَتَحَوَّلُ إلى مَسرَحٍ "للغولة" و"المانوس" و"الوَنَس" حتَى مَطلَعِ الشّمسِ، ومَنْ يَدخُلُها سيَلقَى حَتفهُ لا مَحالة.

وذات ليلةٍ في إحدى "التّعاليل"البدويّة تَجَرّأ أحدهُم وتَحَدَّى أن تكونَ المغارَة وما يدورُ حَولها من أساطيرَ وخُرافاتٍ ما هي إلا أوهامٌ من نَسْجِ الخَيال، وأنّهُ على استعدادٍ أن يذهبَ إليها ليلاً ويعودَ، فقالوا له اذهَبْ ولكَ ما تَشاءُ وخُذْ هذا الوَتَدَ وَدُقَّهُ وسطَ المغارةِ دليلاً على دُخولكَ إيَّاها وَعُدْ إلَيْنا.

قامَ الرّجُلُ وأخذ الوَتَدَ وفي ظُلمةِ اللّيلِ الحالِكِ وصلَ إلى المغارةِ، والوساوِس تدورُ في رأسهِ حولَ وجودِ "الغولة" أو أيّ مُصيبةٍ قد تَحلُّ به، ولكنَّ دافِعَ الشَّجاعَةِ عِندَهُ كان أقوَى من سَيطرةِ الأوهامِ عليه، كما أنّ إيمانَهُ بعدَمِ وجود هذه الخُرافات رفضَ الفِكرةَ تمامًا أن تكونَ المغارَةُ "مسكونة".

تَقدّمَ بحَذَرٍ شديدٍ ودخلَ المغارَةَ إلى وَسطِها وجلسَ لِيَدُقّ الوَتَدَ

وهو ينظرُ حولَهُ بشيءٍ من الخوفِ والتَّرَقُّبِ، وبدأ يطرقُ الوَتَدَ طَرقةً تِلْوَ طرْقةٍ وثَبَّتَهُ في أرضِ المَغارةِ، ولم يحدُثْ شيءٌ، ولم تُمَسّ منهُ شَعْرَةٌ واحدة، ارتاح بعض الشَّيء وَهَمّ بالنّهوضِ وما أنْ قامَ حتّى شَعَرَ بشيءٍ يَجذِبهُ بقوّةٍ إلى الأرض فوقعَ أرضًا فاقدَ الوَعي.

وفي "الشّقِّ" شعرَ الرِّجالُ أنَّ صاحِبَهُم تأخَّرَ أكثر مِمّا يجبُ، وقد فاتَ موعِدُ عودَتِهِ وهذا يُؤكِّدُ بلا أدنى شَكٍّ أنَّهُ قد هَلَكَ تَصديقًا للرِّوايةِ التي لم يُصَدَّقْها، ولكن ما الفائدةُ الآنَ فلا أحد يستطيع الاقترابَ والتَّأكُّدَ من ذلكَ إلاَّ في الصّباحِ حين تعودُ المغارة إلى طبيعتِها، وفعلاً ذهبوا إلى المغارةِ في الصّباح ودخلوها ووجدوا الرَّجُلَ الشُّجاعَ مَيتًا فيها، وقد أوفَى بوعدهِ أنْ دَقّ الوَتَدَ في وسطها، ولكنّهُ دَقَّهُ على طَرفِ ثوبهِ وحينَ قام أمْسَكَهُ الوَتَدَ فَظَنَّ أنَّ المَحظورَ قد وقعَ وأمسكَتْ به "الغولة" فقَضَى رُعبًا.

* * *

أحياناً كثيرة تحصل ظروف تُحوّلُ الوهمَ والإشاعة إلى حقيقة، أو تقلب الهزلَ إلى جِدٍّ أو تصنع مشكلةً من عَدم.

"وطير طير الله يمسّيكوا بالخير".

في البريد

حينَ وصل "الأرشيدوق عيد" إلى أحدِ فُروعِ البَريدِ وجدَ حرجًا في نفسهِ أن يسألَ عن دَورهِ ومَنْ قبلَهُ أو على الأقلِّ أن يستفسرَ عن الأرقام، وتَجاهَلَ كُلّ هذا أمام كبريائهِ، وَياقَة قميصه المَكويّة بعناية تّدُلّ على حَجم المسؤوليَّة المُلقاة على عاتقهِ، والهالَةُ التي بناها لنَفسهِ أشارت دون أدنى شَكٍ أنه يَتَبَوَّأ منصبًا فيهِ كُرسيٌّ مُريحٌ مع خاصِّيّةِ الدّوَران اللّذيذ.

أخرجَ هاتفهُ الضّخم لِيعبثَ بهِ بقَصدٍ أو دونَ قَصدٍ وأوراق كثيرة وأخذ يتقدّمُ بحذائه الطَّويل الذي يشبهُ كثيرًا وجهَ الفَقْمَة البَلهاء إلى أن وصلَ الطّاولةَ مارًّا بوجوهِ كُلّ الطّبَقة الفَقيرة ورائحة عرق الكَدّ الطّاغِيَة عليهم.

وضعَ "الأرشيدوق عيد" مِرفَقَهُ النّاعم على الطّاولة بمُحاذاة مُوظّفِ البريد وما زال صوتُ النّقراتِ من هاتفه يُمزّقُ صبرَ المُنتَظرينَ والنّاظرين، ثُمَّ اقتَنَصَ فُرصةً ثَمينةً حينَ أنهى أحدُ الزّبائنِ معاملتَهُ فأدار ظهرَهُ الأملس للواقفين وبحركةً اِنزلاقيّةٍ أتْبَعَها بابتسامةٍ عريضةٍ نظر إلى الموظّف، وقبلَ أن يمدّ أوراقهُ للموظَّفِ وإذا بمِرفَقِ الكونتيسة "نايفة" يَنزَلقُ هو الآخَرُ على الطّاولةَ مُبعدًا الأوراقَ ومُطفِئًا تلكَ

الابتسامة على شِفاهِ "الأرشيدوق عيد"، وكأنّها حرصت أن يتَلَوّنَ وجههُ بالأحمر خجلاً حين قالت بكُلّ ثقة:

– " ناس ما بتستحي".

ثُمّ أعطتِ الموظّف قُصاصَة ورقٍ صغيرةٍ فيها رقم حسابها وقالت له:

– " كُل الدّراهم عِشْت بناخي، لا تخلّي شي".

وَالْتَفَتَتْ تُراقبُ تَراجُع "الأرشيدوق" لِينتظمَ في آخر الطَّابور وهو يُمَثِّلُ وُرودَ اتّصالٍ مُفاجئ.

تحيّة للكونتيسة "نايفة".

الطِّفلُ الأجير

بشيءٍ من الجِدِّيَّة وكثيرٍ من التَّعَبِ الظّاهر على حركتهِ دخلَ الدُّكّانَ ووقفَ أمام الثلاجة وفي يدَيْهِ بقايا إسمَنْتٍ عالقة تَملأ الشُّقوق السّوداء فيها، ورفعَ إصبعهُ التي بَدَتْ كَمِئذنةٍ قديمةٍ غَشَتْها عاصفةٌ من الغُبارِ وأشار ثُمّ قال للبائع:

– بكَم هذه ؟

– بِأربعَةِ شواقل، أجابهُ البائع الذي حَوّلَ ناظِرَيْهِ سريعًا ليُكمِلَ الضّغطةَ التي كان عليها في هاتفه.

نزلَ ذلك الأصبع الخَشِن مع سائر إخوته، وارتطمَتِ الكَفُّ بجيبِ بنطاله، تَحسّسَتْ بعض الفَكَّة التي دَنْدَنَت بلُطفٍ كأنَّها تقول له إنّها لن تكفي، أو تكفي ولكنّها لا تُريدُ أن تخرجَ وتُفضّل أن تبقى لِما هو أحوَجُ وأهمُّ من "بوظة".

عادت اليَدُ الخَشنة لتَمسحَ سيلَ عَرقٍ من جَبهة صاحبها كأنّهُ فَرَّ من تحت قُبَّعَتهِ المُهترئة أو لينعمَ بنسائمَ عليلةٍ مُنبعثةٍ من المُكيّف المُقابل للوجه الصّغير، أخذَ رَبطة الخُبز وعُلبَتينِ من "الشّمينت" ودفع ثمنها وخرج تتَسارَعُ خُطاهُ في حذائه الكبير مُحدِثًا دبيبًا ككَتيبة كَشّافة.

وينتَهي المَشهد...

اعترافات ناجِيَة

وَمَضَتْ تَقول:

كنتُ على شَفَا هَلاكٍ مُحَقَّقٍ حينَ رفعتُ نَظري ورأيتُهُ في انتظاري على قارعة الطّريق، حيثُ كنتُ أسير وَحدي مُتّجهةً إلى بيتنا، شَيءٌ لم يكُن بالحسبانِ ولمْ أدركْ قِمّة الخَوف إلاَّ حين عرفتُ مَدى قُربي منهُ وهو ينظرُ إليّ من قِمَّةِ رأسي إلى أخمص قدمَيّ بشيءٍ من الاستعجال والتّرَقُّب.

دَقّتْ في قلبي كُلّ أجراس الخوف والهَلَع وانعَقدَ لساني في حَلقي، وعن أطرافي لا مجال للحديث، فقَدْ فقَدْتُ السّيطرة عليها وصارت ترتجفُ بلا توقُّف، ما زال ينظرُ إليَّ ثُمَّ يُديرُ وجههُ إلى النّاحية الأخرى حيثُ لا أحد، ويعودُ ليُراقِبني بكُلّ حرص.

لم أجرُؤ على الالتفاتِ خَلفي خشية أن يشُكَّ في محاولة هُروبي فيحدُثُ ما أتوقّعهُ بعد حين، أي أن يستعجل خُطّتهُ ويهُاجمني، وأعلمُ أنّني لن أسلَمَ حيث لا مُنجد ولا مُغيث ولو ملأتُ الدّنيا صُراخًا فلا أحد في الجوار، لا أدري ما الذي دفعنَي لمُواصلة السّير، رُبّما هي نهاية فكرة العودة والهروب، أو إنّ الخوف أحدثَ بلبلةً في تصرُّفاتي وأنا أنظرُ إليه، بل أنتظر قفزتهُ عليّ ومن أين سَيُمسِكُ بي،

أمّا ماذا سيفعل فلم أكترث لأنّها النّهاية بالنّسبة لي، تقدّمتُ بخطواتٍ صغيرةٍ قصيرةٍ فقط كي أُثبتَ للطّريق أنّني لستُ خائفةً مع أنّ الخوفَ ومَلَكَ الموت معًا جَثَما بين عينيّ.

ها أنا أقتربُ وهو لا يُحرّكُ ساكنًا سوى عَينيهِ المَغروستَيْن في جَسدي، كِدتُ أن أقعَ من شدّةِ الارتعاش، يا إلهي ماذا أصنع؟، ها هو يقف، سألقي عليه حقيبَتي وأهرب، نعم سأركُض بكل قوايَ، أعلمُ أنّهُ سليحقني في ثوانٍ ولكنّي أكونُ قد قاوَمْتُ وما استسلَمْتُ، وعندما رفعتُ حقيبتي تذكّرتُ أنّ بداخلها مِرآتي الصّغيرة، نعم نعم، سأكسِرُها وأطعنهُ بها، وما أن أدخلْتُ يدي في الحقيبة حتّى شعرتُ أن عينيهِ تبتسَم، وبدأ ذيلهُ يهتزّ بِتَوَدُّدٍ وتدَلَّتْ أذُنَاهُ بشيءٍ من الرّجاء ظَانّا انّني سأُلقي إليهِ بقطعة خُبزٍ أو بقايا طعام، فهذا ما اعتادَ عليه من المارّة على ما يَبدو.

مُسافر إلى بئر السّبع

بعدَ عدّةِ مُحاولاتٍ يائسةٍ لانتِزاعِ رَأسي من الوِسادةِ السّاخنة، وإقناعِ جَسَدي بمُغادرةِ فِراشي الدّافئ، مصحوبةٍ بتأمُّلاتٍ طَويلةٍ في سَقفِ "الزِّينكو"، جلَسْتُ كمن يَستعيدُ ذاكرتَهُ المَفقودَة بعد صَولات وجَولاتٍ في دَهاليزِ ليلةٍ من التَّقَلُّباتِ والسَّهَر والأرَق، ورائحة سجائري ما زالت تَفوحُ من فَمي، قُمْتُ على مَضَضٍ مارًّا بأُمِّي وهي تُرَتِّبُ كَومَةً من الأرغِفةِ السَّاخِنةِ في (الدّفال)، ولَمَحتُ وَجهي في المِرآة الصَّغيرةِ المُعلَّقةِ عندَ الباب، كان شَعري الطّويل قد أصبح أشعثَ واجتمعَ في خُصَلٍ منها المُتَّجِهَةُ إلى أعلى ومنها المُشتَبكة ببعضها، فعَزَمتُ مَرَّةً أخرى على أن أستريحَ منهُ بعد أن أجّلْتُ ذلك مَرَّاتٍ عَديدةٍ امتدَّتْ لأشْهُرٍ، كأسُ الشّاي كان جاهزًا ونصفُ رَغيفٍ ساخنٍ كَفيلٌ أن يفتحَ شَهيّةَ الصّباح.

لم يستغرق استعدادي للسَّفرِ إلى المَدينةِ سِوى دَقائِقَ مَعدودةٍ، قضيت جُلَّها في البحثِ عن فِردَة حِذائي الضَّائعة، وما أن عثرت عليها حتى بدأت مسيرة انطِلاقي لِمسافةِ بضع كيلومتراتٍ وُصولاً إلى الشَّارع العامّ، تحت وَطأةِ شَمسِ الصّباحِ التي بدأت حَرارتُها تشتدُّ كُلَّما عَلَت، وكُلَّما ابتعدتُ عن قريَتِنا الصّغيرة أطبَقَ الصّمتُ أكثر،

فلم أعُد أسمع إلاّ صوت ديكٍ رُوميٍّ يُدَوِّي ثمّ يهدأ، على إيقاعٍ من ضَجيجٍ مُنتَظِمٍ من بِنطالي الذي اكتسى أسفلهُ بغُبار الطريق.

مَضى على وُقوفي بجانبِ عمودِ المحطّة حوالي نصف ساعةٍ قبل أن أقرَّر الجُلوسَ على الحَجَرِ الوحيدِ الذي بدا كأنّهُ جُلِبَ من مَكانٍ بَعيدٍ ليُؤنِسَ عمودَ المَحطَّة، وما أن هَيَّأتُ نفسي للجلوسِ حتّى أقبلَتْ سيّارة "الحاج حسين" وأخذت تُبطِئُ وتُزَمِّرُ وتُضيءُ المَصابيحَ حتى تَوقَّفت بجانبي ودونَ وعي وجدتُني داخلها، وكأنّني قطعتُ عليهم حبل حديثهم فأكملوه حالَما تمكنّتُ من إغلاق الباب بعد عدّة محاولاتٍ فاشلة، وكانت السّيارة ملأى بالرُّكاب.

جلستُ في مكاني على طرفِ المَقعدِ الطَّويل بعدَ أن ضَمَّ الشّيخُ الذي بجانبي رُكبَتَيْهِ على عُكّازه وأتّكَأَ عليه، أدَرْتُ نصف وَجهي لأسترِق نظرةً على مَن خَلفي فقابلَتني سَحابة دُخانٍ نَفَثَها رَجُلٌ لم أتَبَيّنْ من مَعالِم وجهه سوى شاربهُ المُصَفّر، كان الجميعُ يتحدّثُ في نفسِ الوَقتِ فلم أفهم فحوى الحديث وكان "الحاج حسين" لا يَسكُتُ إلاّ عندما يضعُ باطن يدهِ على الغَيار لينقلهُ إلى غيار آخر بشيءٍ من الصُّعوبة ثُمَّ يعود للحديث بعد أن يطمئِنَّ على أنّهُ الغَيارُ المُناسب.

أخذتُ أفكّرُ في ما سأفعلُ حالَ وُصولي إلى المدينة وأنا أنظرُ من

النّافذة فقطعت تفكيري يَدٌ هَمَزَتْني أسفلَ كَتفي فَالْتَفَتُّ سريعًا وإذا بورقةٍ نقديّة عند أنفي تَضَمَّنَتْها إشارةٌ واضحةٌ أن أمَرِّرَها إلى الأمامِ ففعلْت، عدتُ لأواصل تفكيري بعد شُعورٍ بإداءِ مَعروفٍ أُشْكَرُ عليه، فَرَبَتَتْ على كَتفي يدٌ أخرى خَشنة، تُمسكُ بين أصابعها ورقة نقديّة أخرى خضراء مَطويّة على بعضها بحجم سيجارة وبنفس الإشارة مرّرتُها إلى الأمام، وكانت عَيْنا "الحاج حسين" ترصُد المدد الآتي من الخَلفِ في المِرآة المُرتَجِفَةِ ويُتابعُ أيدي السُّعاةِ إلى أن تصلَهُ الأجرة.

سرعان ما وجدتُ نفسي أهمِزُ كَتِفَ الذي أمامي وأعطيه الأجرة وأشيرُ له أن يُمرّرها وأراقِبُ وجهَ "الحاج حسين" في المِرآة وهو يبحثُ عن فَكّةٍ في مِنفَضَةِ السّجائر ليُعيدها إليَّ.

صوتُ الهَواء النَّافذ من النَّوافذِ يَصُمّ الآذان، مما يجعلُ المتحدّثين يرفعون أصواتهم، وفي الخلف امرأتان طلبتْ إحداهما أن يُوصلها إلى "مدير الهَوايا" (مكتب الدَّاخلية) لأنها لا تعرف المكان.

كان شُعوري أنَّني غادَرْتُ قَريَتَنا منذُ ساعات، وكأنّني أعرف الوُجوه التي أراها داخل السيّارة منذُ زمن لا أعيه، حقًّا هي سَفرَةٌ طويلة، رُبّما لأنها بطيئة، كثيرة التّوَقُّف، سادَها الكثير من الألفة، وكثرة الأحاديث المُشترَكَةِ لم تدع فرصةً للشُّعورِ بالوحشة.

أمَّا نهايةُ الرّحلةِ في محطّتها الأخيرة "باب الحديد" فتلكَ حِكايةٌ أخرى.

باب الحديد

الزَّمان: العاشرةَ تمامًا.

المكان: السوق البلديّ في بئر السّبع، "باب الحديد" بالتّحديد، هو آخرُ محطّةٍ يتَوَقَّفُ فيها "الحاج حسين". نزلْنا من السّيّارةِ نَستَجْمِعُ قوانا، مُنهَكينَ من عناء السّفَرِ. تَوجّهتُ نحو مَدخل "باب الحديد" الكبير حيثُ يجلسُ عادةً بعض تُجَّارِ التَّبْغِ يُحيطُ بهم بعض الرِّجال في حَلقات، يفترشونَ الأرضَ يتجاذبون أطراف الأحاديث ويتَباحثونَ في آخر الأخبارِ الواردةِ حول قضايا "الحَقّ والطّايب" والنّزاعات والخِلافات العَشائريّة، وعلى مقربة منهم يقفُ بعض صَرَّافي العُملة المَشهورين منذُ سنين، يتَفَرّسُون في وُجوهَ القادِمين وهم يَهمِسونَ بصوتٍ مُنخفضٍ: "دينار.. دولَر.." كُلّما مَرَّ بهم أحد، وبنظراتٍ حادّةٍ من بعيد يُراقبونَ القادمينَ كأنّما يعرفون نِيَّةَ مَن يُريدُ الصِّرافَةَ من غَيرهِ ومِن أيّ جَيبٍ سيُخرج النُّقودَ، يُلَوِّحونَ بِرُزَمٍ سَميكَةٍ من الأوراق النقديّة ثُمَّ يَعُدُّونَها بطريقةٍ سريعةٍ عجيبةٍ ويُعيدونَها إلى جيوبهم ويستبدلونها "بالسِّبْحةِ" وهكذا دَوالَيْك.

عَبرتُ البَوَّابةَ داخِلاً ففاجأني صوتُ بائع الخُضار الجَهور، صامًّا أذنيّ، مُناديًا على بضاعته، ولاحَقَني صَبيٌّ صغيرٌ يبيعُ "الولاّعات"

وفي كل خطوةٍ كان يُخفضُ السَّعرَ بشيكلٍ آخرَ، حتّى ظننتُ أنَّهُ سيهديني إيّاها مَجّانًا بعد خطوتين، واصلتُ صُعودي نحو "سوق الخُضرة" وسط نداءاتٍ وصرَخاتٍ مختلطةٍ بعضها بالعربيَّةِ وأخرى بالعبريّة، وبَدا السّوقُ أكثر ازدحامًا فتذكّرتُ التّاريخَ من الشهر فأدركت السّبب.

رائحةُ الفلافل تزكم الأنوف كُلَّما اقتربتُ من القِسمِ الغربيّ من المُعرّشات وفي زوايةٍ أمام بابٍ مُغلقٍ تَجلسُ امرأةٌ بدويّةٌ على الأرض وقد وَلَتْ وجهَها شَطْرَ الحائِطِ فلا يُرَى منها إلا هيئتها داخل "قُنعتِها" السّوداء وعلى بُعد أمتارٍ منها يقفُ سائحٌ أجنبيٌّ يَتَرَصَّدُها بكاميرته.

تَناهَى إلى مَسامعي صوتُ "شفيق كبها" في مَوَّالٍ عراقيٍّ طروبٍ جَميلٍ لم أسمعهُ من قَبْلُ، فَحثَثْتُ خُطايَ نحو "سامي" بائع أشرطة الكاسيت الوحيد في السُّوق، وبسرعةٍ ناوَلَني الكاسيتَ الجديدَ حين رَآني أتَحَسّسُ جَيبي وأنا أُلْقي نظرةً على الطّاولةِ أمامه، وخرجتُ من عنده تَتَعقَّبُني صَبيّةٌ مُتَسوِّلةٌ لَحوحٌ في استجدائها كادت أن تدفعَ يدَها في جيبي، فواصلتُ هُروبي إلى الزُّقاقِ الذي أحِبُّهُ كثيرًا حيثُ الدّكاكين الصّغيرة التي تبيعُ الأشياء القديمة والمستعملة والغريبة، وفي زاويتهِ مَقهىً صغيرٌ يعجُّ بالمَغاربةِ اليَهود يلعبُونَ بورق اللعب والنّرد

وغيرها، تَسودُ اللُّغةُ العربيّة باللّهجةِ المَغربيّة أحاديثهم على خَلفيَّةِ أغنيةِ "أنت عُمري" لكوكب الشَّرق، ولم أنْسَ إلقاءَ نظرَتي المُعتادَةُ على الإسكافيِّ الإيرانيِّ العَجوزِ بجوارِهم وهو يُصلِحُ حذاءً لِزبونٍ عنده.

والآن بعدَ هذه الجَولةِ التي كان لا بُدَّ منها، لزامٌ عليّ أن أتوجّهَ إلى البلدةِ القديمةِ لإتمامِ المُهمّة التي جِئتُ من أجلِها، إلى الحَلاّق "ألْبِرْتْ" الذي قصّ شَعْرَ أغلب شباب البدو وشيبها على مدارِ عَشَراتِ السِّنينَ، وصَلْتُ إليه وألقَيْتُ التَّحيَّةَ فحَيّاني بابتسامةٍ عريضةٍ على نَغمةِ المِقَصِّ التي تُشنّف الآذانَ، فيما نظرَ إلَيّ الجالِسونَ مُتَفحِّصينَ طول شَعري وكأنّي بهم يقولون: نحنُ أكثر منكَ شَعاثةً وأغزر شَعْرًا، جلستُ وكعادتي تناوَلتُ مجلّة "شِيبع" الشّهيرة آنذاكَ لأتصَفَّحها ريثما يحينُ دَوري.

أمّا "سوقُ الحَلالِ" فتلكَ حكايةٌ تحتاج تَبكيرًا قبلَ طُلوعِ الفَجر.

البدويُّ والسِّرُّ في شَمِّ "المَطَرَات"

(القالونات والبراميل)

يُحكى أنّ ...

مِن عادة البدويِّ إذا وجد قِنِّينةً أو برميلاً صغيرًا وكان بحاجةٍ إليه، فأوّلُ ما يفعلهُ بعد فَتْحهِ هو شَمُّ ما بداخلهِ، وذلك لمحاولة التّعرُّفِ على محتواه السَّابق وبهذا يُحدِّدُ الغرضَ للاستعمال، فإن كان يُريدُها للماء مثلاً فعليه التَّأكُّد من أنّ الرّائحةَ قد تزول أو لا تزول بعد الغَسْل وعن طريقة الرائحة وشِدَّتها قد يُلغي استعماله.

وفي هذا السِّياق..

يُحكى أنّ ناطورًا ذهبَ ليَتفقّدَ "النّطرة" الكبيرة المُتَرامية الأطراف وهي "مَهْبَط لطائراتِ الرّشّ الزّراعي" في شمال النَّقب، وفي يدهِ كأس قهوةٍ، بينَما تركَ "طاسة الكهرباء" تَسخَنُ لاستقبال (الجناحين) المُتَبّلَة بأشهى التّوابل (ملح وفلفل أسمر).

وفي عودتهِ التي لم تَستَغرِق سوى بعض الدَّقائق، وقعت عينهُ على "مَطَرة" (قالون ١٨ لتر / برميل صغير)، فقال في نفسه:

– "بْتَلزَمْ الليلة .. مْطَيْرِحْها جاهز في البَقاج".

تناولَ "المَطَرَة" تفقدَّها جيِّدًا، تبدو جديدةً لا ثقوبَ ولا ضَرَبات

فيها، سليمة مُعافاة والحمد للّه، رَجّها قليلاً وفتَحَ السِّدادَةَ وقَرّبَها إلى أنفه ....

وعلى الفَور..

اسْوَدّتِ الدُّنيا في عينيه، وتَوقَّفَ التّنفُّسُ في حالةِ الشّهيق، والأنفُ أصبحَ خارج الخِدمة تمامًا، وطعمُ الدُّموعِ في الفَمِ مع قَشعريرةٍ غريبة في كل أنحاء الجِسم.

ثوانٍ طويلة مَرَّتْ والرِّئتانِ لا تَستَجيبانِ لنِداءِ التّنَفُّسِ والأعصاب فيما يُشبه التّشنُّج، والعيون لا ترى شيئًا وفيها ألمٌ رهيبٌ مصحوبٌ بحُرقةٍ فظيعة.

أدركَ النَّاطورُ أنّهُ في مأزِقٍ وأيّ مأزق، بل مسألة حياةٍ أو موت، لا يدري أين طارَ هاتفهُ (المِيرْس)، وكان في هذه الأثناء قد تقدَّمَ بضع خطواتٍ على غير هُدى، شعرَ باختناقٍ في رقبتهِ وانطرحَ أرضًا، لا أحدَ بالجوار يُنقِذهُ ولا هو يستطيعُ النِّداءَ والطَّريق بعيدة.

وبآخرِ قِواهُ الخائرةِ مَدّ يدهُ نحو مُسَدّسهِ وقرّرَ إطلاقَ النّار لِعلّ أحدًا يسمعُ صوتَ الرَّصاص فيأتي ويُغيثهُ، وما أن أخرجَ المُسدّس الثّقيل وبيَديْنَ مُرتَعِشَتَيْن حاولَ ولم يُفلح، وعند المُحاولة الثّانية شعرَ أنَّ الرِّئتَين المُنقبِضَتين بَدَأتا بالحَركةِ وبدأ يستعيدُ أنفاسه ببُطءٍ شديدٍ وشهقاتٍ قصيرةٍ ثُمّ أطوَل فأطوَل.

تَحرّك النَّـاطور وانقلـبَ علـى ظهـرهِ، العَينـانُ مُغْمَـضَتان، ولكـنّ التّنفس بدأ يعودُ إلى طبيعته بِغَضِّ النَّظر عن بقيّةِ التَّشَنُّجات والحَكّـةِ والحُرقة في البُلعوم والأنف.

بقيَ على حالتهِ هذه ما يقارب الرُّبع ساعة، ثمّ قَعدَ مادًّا رِجلَيْـهِ لِيتسريحَ وَيحمدَ اللهَ على نَجاتهِ من موتٍ مُحَقّق.

والمصيبةُ أنَّ الناطورَ يعرفُ أنهُ ســـــامّ.

ولكن...

وها هو النّـاطور مُحـدِّثكُم وكاتـب القـصّة الـتي حـدثت في تـاريخ ٢٠٠٩/٥ في (مَهْبَط كِيدما).

شُقوق في الذّاكرة

كأنَّها شمس الصَّيف الحامية أشرقت لتُنهي آخر مظاهر الشّتاء، فَجَفَّ وتَغيَّر لون كُلّ ما وقعت عليه عينها، واستسلم لها الزَّرعُ حانيًا سنابلهُ، منها المُثقَلة ومنها ما أمالَتْهُ الرّيح والأمطار المتأخِّرة عُنوةً.

أمّا تلك الخَشْخَشَةُ تحت قدميّ الحافيتين حين أسيرُ على الطّبقة التُّرابيّة المُتَشقّقة التي انحنت أطرافها إلى أعلى بعد جفافها فهذه مُتعةٌ لا يعرفها إلاّ مَن شَعر بالدّغدغة في باطنِ قدمه واستلذّ بالرُّطوبة والنُّعومة حين تتهشّمُ تحت قدمه، شعورٌ رائعٌ حقًّا، وإنْ أردتُ زيادةً أفركُ قدمي بين الخُطى أو أحثُّ خطايَ فأهرولُ وأركضُ مُتعرّجًا ألاحِقُ الأشكال الجميلة الكبيرة ثُمّ الصَّغيرة، أقفِزُ عن الحِجارةِ ولا يفوتُني أن أنتقي بعض القطع متشابهة الشّكل لأرتِّبها فوق بعضها ثُمّ أهوي عليها بقَدمي وأنطلق.

الانتظار المُحرِج

تقدَّمَ ثُمَّ اقتربَ بعض الشّيء بصفَتهِ التّالي في الدّوْرِ بعدَ مَنْ يُنهي مُعاملته من الثّلاثة الواقفين أمام طاقم الموظّفين.

أخذ يُهَيِّئُ نفسه فَحَرّكَ كتِفَيْهِ وَبَدّلَ مكان قدَمَيْهِ وتَنحنَحَ بلا سببٍ وأعْقَبَها بكَحّةٍ مُفتَعَلةٍ، وبعدَها رفعَ نظرهُ باهتمامٍ نحو مَصابيح السّقفِ لِعدّةِ لحَظاتٍ، وفجأةً جاءَتِ اللّحظَةُ المُنتَظَرةُ على وَقْعِ كلمات الشُّكرِ التي ألْقَى بها الزَّبونُ أمامه تجاهَ الموظّفة الشّقراء وهي تَبتسِمُ مُثْنِيَةً على شُكرِهِ حتّى استقامَت شَفَتَيْها في خَطٍ عَريضٍ مُثيرًا عندَ طرفَيْهِما بعض التّشَقّقات التي تَمَّ دَفْنها تحت طُبَيْقَةٍ رقيقةٍ من الطِّلاءِ الجميل اللاّمِع.

أيقنَ صاحبنا أنّ المسألةَ قابَ شَهْقَتَيْنِ أو أدنَى ليقفَ أمامها، أخرجَ أوراقهُ وبطاقتهُ وأخذَ يُقَلِّبها كَمَن يراها لأوّل مَرّةٍ في حياتهِ فيما ارتفعت يدهُ الأخرى لتتحَسّسَ رقبتهُ وكأنّها تُدَلّكُ حُنجرته قُبَيْل الكلام.

وَلِحُسْنِ حَظّهِ تَمهّلَ الزّبونُ والشّقراءُ في استفسارٍ ما وإذا بالمُوظّف الذي بجانِبها يُنادي:

– التالي فِي الدَّوْر ؟

فقفزَ إليهِ صاحبنا قَفزة النّاجي من التّـوَتُّر والإحـراج مـادًّا بطاقتـه ولم يَنبسْ بِبِنتِ شَفة.

أفراح وليالٍ مِلاح

بعد الانتهاء مـن موسـم الحَـصاد يبـدأ الاسـتعداد "للفـرح" وهـذه المناسبة السعيدة قد تكون الوحيدة في المنطقة كلّها، فيقوم أهل الفـرح بنَصْبِ خيمتين في مكانٍ بارزٍ ومُستَوٍ: واحدة للرّجال وأخرى للنّساء، وعادةً ما تكون الكبرى منهما للرّجال وتقع في النّاحية الشّماليّة دائمًـا حيث يكون وجه الخيمة إلى الشرق وظهرها إلى الغرب، في حين تقع خيمة النّساء في النّاحية الجنوبيّة، وتفصل مسافةٌ بعيـدة نـسبيًّا بـين الخيمتين.

ومن المعروف أنّ الأعراس في البادية تدوم أسـبوعًا كـاملاً وأحيانًـا

أكثر من ذلك، ويسبقها الغناء والابتهاج بأيامٍ وربما أسابيع، وبذلك يعلم القاصي والداني بالموعد المُقرّر، أمّا التّرتيبات فهي في غاية البَساطة، فالذّبائح متوفّرة بطبيعة الحال، وقد يشترون بعض الأكياس الكبيرة (الشُّنْفاص) لبناء (البِرْزة)؛ وهي الخيمة الصّغيرة التي سيُقيم فيها العريس وعروسه إلى أن ينتهي الفرح، وعادةً ما تكون هي الأخرى بعيدة بعض الشيء عن الخيمتين، وكذلك يشترون بعض الأشياء الأساسيّة وعلى الأغلب تُشترى هذه التجهيزات من أسواق "غزّة" أو "بئر السبع".

وجرت العادة أن تُذبحَ الذّبائح في اللّيلة الأولى التي تُنصب فيها الخيام ويسمّى (عشاء البيوت)، وهو بمثابة إعلان بداية الفرح الرّسميّة، فيَتوافد الجيران والأقارب ليُساعدوا أهل الفرح في كل شيء، ومنهم مَنْ يأتي بعياله وأهل بيته ليُقيموا عند أهل الفرح طيلة الأسبوع، والجميل في الأمر هو روح العطاء والتّعاضُد والمساعدة، فيأتي الجيران والأقارب بما عندهم من "مَفارش" وبُسُط، ووسائد (مَراكي) وأدوات القهوة وحبال وأوتاد وغيرها ممّا يلزم.

ويستمرّ الفرح بعد ليلة عشاء البيوت، أمّا العريس فيَبدو حتى الآن كأحد الأفراد (المْحِلِّيّة) يساعد هنا وهناك وما يلبث أن يختفي حياءً كُلَّما اقترب يوم الجُمعة وهو اليوم الذي تغادر فيه (الفاردة) –

أي الزّفة – لتعود بالعروس.

لا ضوضاء ولا ضجيج ليالٍ هادئة مليئة بالسّعادة للجميع طيلة الأسبوع، ويزداد عدد الرّجال في ساعات المساء، عندما يبدأ السّامر "الدّحيّة"، والبعض يبقى "للتّعليلة" والحكايات الجميلة وغالبًا هم من الكبار، فيما يتّخذُ بعض الشبيبة موقعهم في طرف الخيمة مع لعبة "السّيجة".

نِهايات دَامِيَة

في الحَقيقةِ ما كنت لأتَوَقَّعْ ما حَدَثَ ...

لَمْ أقصدِ العُنفَ عندَما لَطَمْتُها بظاهِرِ يَدي. كانَتْ حَرَكَةً سريعةً خارِجَةً عن إرادَتي تَعبيرًا عَنِ اِنزعاجي في تِلْكَ اللَّحظَةِ بالذّات، لا أعرِفُها وَأشُكُّ أنّها هيَ أيضًا لا تَعرِفُني، وَلَكِنّ اللَّطْمَةَ أصابَتْها، لا أدري كَيف، لم آخذ بالحسبان ما سَيَجري بَعدَها، لَطَمْتُها وانتَهى الأمْرُ، حتَّى أنّني لمْ أتَساءَلْ لِماذا قَصَدَتْني أنا بالذّات.

لَمْ أُوْمِنْ بالعُنفِ يَومًا ما لِتَعديل أيّ مَسارٍ، ولا حَتَّى بالمُبيداتِ، وَإنّما تَرَكْتُ لِلْجِهاتِ المُخْتَصَّةِ مُعالَجة انتِشارِ البَعوضِ من سُلالَةِ هذِهِ البَعوضَةِ التي أرغَمَتْني على حسم الأمر على الوجه الذي ذَكَرْتُه أعلاه.

السّروال المُخيف

وقفَ حائرًا يتأمّلُ سِروالَهُ الأبيضَ المنشورَ على حَبلِ الغَسيلِ وقَد نَفَخَتْهُ الرِّيحُ بقوّةٍ حَتَّى اشتدَّتْ كُلّ طَيّةٍ فيهِ واستَقامَتْ قَدَماهُ، فأخذتا تتحرَّكان بالتَّناوُبِ أسفل وأعلى كالتي تَمشي وهي تُرَفرِف، واتّخَذَ شَكلاً غريبًا كأنَّ شيئًا يتَحرّكُ في داخلهِ، وَأثارَتِ انتِباهَهُ "دَكَّة" السِّروال بخَيْطِها الطَّويلِ وهي تَدورُ بحَركةٍ لولبيَّةٍ ثابتةٍ داخل القُبَّةِ الكَبيرةِ المَنفوخّة.

ذهبَ عقلُ الرّجُلِ بعيدًا وفكَّرَ في أشياءَ يَعرفُها أهلُ الباديةِ من رِواياتِ الأجدادِ عن الأرواح والأشباح، ولعَلَّها صَدَقَت وتَحقّقتْ هذه المرّة، فنادى زوجتَهُ بعدَ أن شعرَ برَعشَةٍ في رُكبَتَيْهِ وقال لها:

–"هَيْه يامّ اهْلال، الدَّكَّة أقْفَتْ بالسِّروال".

نايفة والبرتقال

كان الجَوُّ باردًا وكُنّا نشعرُ بلفَحات البَرد كُلّما فُتِحَ باب الصّف الذي هو عبارة عن غرفة مُنفردة في سربٍ غير مُنتظم من الصُّفوف، خرج المعلم بعد نهاية الدّرس مُتّجهًا إلى الإدارة، واستغلّت "نايفة" هذه الفرصة لتُقَشّر برتقالتها الثّانية أو الثّالثة منذ الصّباح حيثُ إنّها كلّ يومٍ منذُ بداية موسم "القطيف" تأتي بالبُرتقال كوَجبة غداء مع خُبز الصّاج، وكذلك إخوَتها في صفوفٍ أخرى لأن والدهم يعمل في قَطف البرتقال.

وما هي إلاّ لحظات حتّى فُتِحَ البابُ ودخل هواءٌ بارد أعادَ رائحة البرتقال إلى أنوفنا عنوَةً ورأينا معلّمةً قد جاءت من الصّف المجاور بشيءٍ من السُّرعة وقالت بصوتٍ عالٍ وهي تتفحّصُ وجوهنا بشدّة:

"مين معو بورتْكاني"؟

لم نفهم صراحةً ما قالت ولكنّ لهجتها الشّديدة وملامح وجهها أوحى لنا إنّها مُستاءَة جدًا أو منزعجة وتريد معرفة شيءٍ ما، رُبّما مصدر الضّجيج المُعتاد أو أنّ أحدًا مِنّا أغضبَها في شيء مع أنّها ليست معلّمتنا.

وما زالت تُكرّر العبارة وهي تخطو وتقترب من السّطور وصوت

كعبها الذي ينقر الأرضية الخشنة هو الوحيد الذي نسمعه، ونحنُ في صمت الأموات و"نايفة" التي بدت كأنّها غرقت في معطفها الضّخم ولم يبقَ منها إلاّ منديلها المَعقود.

كانت المعلمة تتعقّبُ رائحة البرتقال ولكنّها فشلت في الكشف عن مصدرها وظنّت إنّنا نُنكرها مع إنّنا لم نفهم القصد ولو فهمنا مطلبها لأشَرْنا جميعنا على حقيبة نايفة المُثْقَلة بالبُرتقال.

خرجت المعلمة بخيبتها الظاهرة على وجهها مُتّجهة إلى صَفٍ آخر وبعد دقيقتين لمحناها من النّافذة وفي يدها بُرتقالة تُقشّرها وتأكل منها.

ومرّت السِّنين وكبرنا وعرفنا أنَّ شهيّة النّساء تَهيجُ أحيانًا وتتأثّر وتطلبُ مأكولاتٍ فُجائيّة (لا عالبال ولا عالخاطر).

عنترة في ديارنا

يَروي لعَبلة ما رَآهُ بعدَ أن حضرَ عُرسًا في النّقب.

قال: رأيتُ الخيلَ واستغربْتُ فُرسانَها ولباسهم، فَقَدِمْتُ إلى خَيمةٍ كبيرةٍ فألْقَيْتُ التَّحيَّةَ، فقامَ النّاسُ يُصافِحونني تِباعًا حتّى ظَننتُ أنّي قد صافحتُ الجميعَ صغارًا وكِبارًا، ثُمّ أعَدْتُ الكَرّةَ على السّطرِ المُقابلِ وأنهيتُهُ على عَجَلٍ فأشاروا إلَيّ أن أجلِسَ فجلستُ، وأتى إليّ صَبيٌّ رَشيقُ القَوامِ حافِيَ القَدمَين يُمسِكُ إناءً نُحاسيًّا جميلاً وفناجينَ مُزخرفةً صغيرةً جميلةً، سكب لي قهوةً لها رائِحَةٌ زَكيّةٌ أعادت لذاكرة أنفي رَوائِحَ أعرفُها في مَضارِبَ بَني عبس ومَدّ لي الفنجانَ ثُمَّ تَقَرْفَصَ أمامي وما زال مُمسكًا بإنائهِ فعجِبْتُ منهُ ولم أسأل، وقُلتُ في نفسي رُبّما هذهِ تقاليدهُم ويجدُرُ بي أن أجلسَ القُرفُصاء مثلهُ بينما أشربُ قهوَتي، وكانَ أغلبُ الحضورِ الجالسينَ عن يميني وعن شمالي لا يعتمرونَ العمائمَ ولا الكُوفيّة العَربيّة وبقايا شَعْرٍ في رُؤوسِهم كأنّهُ نُزِع برأسِ حَرْبَةٍ أو بعدَ كَيٍّ بالنَّارِ وبعضها رُسِمَ عليها خطوطٌ طوليّة وبعضها أصابَها القَحطُ من أسفلها فيما أخْصَبَ أعلاها.

جاء شَيخٌ كبيرُ السِّنِّ ووضع بجانبي وسائِدَ مُطَرّزةً ونَهَرَني

بصَوتٍ قويٍّ: "تَريّحْ يا رجل".

أمّا الخيلُ فما تزالُ تُطارِدُ بعضَها ثُمَّ تعودُ وتأتي من جديدٍ يَصرخُ عليها فُرسانها فلا تستجيبُ كثيرًا كما كان حِصاني الأبجَرُ يَستجيب، وبعضُ الواقفينَ من النَّاسِ يُمسكونَ بِلَوحاتٍ كالمَرايا الصّغيرةِ تُصْدِرُ أضواءً مُلوّنَةً وأصواتًا كنَقيقِ الضّفادِعِ لم أسمعها في عهدِنا، ثُمَّ يُمعِنونَ النَّظَرَ فيها طويلاً.

وَجِيءَ بالطَّعام.

عبلة في ديارنا

في ليلةٍ مَشهودةٍ قَدِمَتْ عَبلة من ديارِ "بَـني عَـبس" لتحـضرَ ليلـة حِنّاءٍ في ديار النّقب الأشَمّ، احتفالٌ بل حدثٌ لم تعرفهُ مـن قبـل ولم يخطر لها ببال إلاَّ بعد حديث عنترة عندما حضر هو الآخر عُرسًـا في بلادنا قبل مدّةٍ وجيزة، وقد قال لها إنّ ليلة الحِنَّاء ليلة تـسبقُ ليلـة العُرس بليلةٍ واحدة وعادةً ما تكونُ مساء الخميس فأصَرَّتْ أن يأخذها معهُ.

ولّما حان الوَقت وصلَتْ عبلة ورأت خيمةً مُزَرْكَشَةً كـبيرةً أشـارَت إلى عنترة فأنزلها من الهَوْدَجِ واتّجه هو إلى حيثُ خيمة الرِّجال فيمـا استَقْبَلَتْ أمّ العـروس عبلـة بالأحـضان فبارَكَـتْ لهـا عبلـة وسـلّمَتْها "كرتونة الكولا" ودخلَتْ فجلسَتْ.

وبدأت اللّيلة....

استنكرَتْ عبلة أحـداث ليلـة الحِنّـاء بحُلّتِهـا هـذهِ وكـذلك آثـار الفَرحة الغريبة والتي تتطلّبُ تَواجُد العريسِ بجانبِ عروسـه في ليلـةٍ مليئةٍ بصُراخِ امرأةٍ تَجَمَّلَتْ بكُلِّ ما مَلَكَتْ من أصـباغٍ وألـوانٍ ووقفَـتْ مُعتَلِيَـةً مِنَـصّتها وفهمَـتْ أنَهـا الـتي عـادةً مـا تأخُـذُ وظيفـة عريفـة الحَفـل، والمـسؤولَةُ عـن صَـخَبِ الموسـيقى وفاتِحَتهـا: "يـا مرحبـا

بزوّارنا" وسط حَشْدٍ مِنَ النّساءِ مِـنْ جيـلِ الفِطـامِ حتّـى مـا بعـد سِـنّ اليَأسِ بَكثير.

وَلَفَتَ انتباه عبلة أنَّ السّاحَة لا تخلو من الفِتيان المُقَرَّبينَ الـذين يأخذونَ دَور الخَـصِيِّ في قُـصورِ الـسّلاطين فيَـصولون ويَجولـون بـين النِّساءِ بشَفاعَةِ أهل البيت.

ضاقَ صدرُ عبلة من هـذا الفِعـل الـشّنيع، واسـتاءَت مـن انحطـاطِ الخُلُقِ الرَّفيع، حـين رأت العـريسَ في مـشهدٍ وَضـيع، وهـو يُـراقصُ عروسهُ على مَرأى من الجميع.

ثمَّ سـادَ الحَـشْدُ بعـض الهُـدوء لبُرهـةٍ تَوَقّـفَ معـهُ نـبضُ عبلـة، وصرخت تلك المرأة المَـشؤومة: "يـلا بنـات عالـسّاحة" فيمـا صـوتُ رَجُلٍ يُغنّي ويصِفُ امرأةً تلبسُ ثوبها "البِنِّـي" وتخلعـهُ وبعـدهُ تلـبسُ ثوبها الأسوَد وتخلعهُ وهكذا دَوالَيكَ حتّى ذكر كلّ الألوان وبـين كـلِّ لونٍ وآخر يقول "ياع".

خافـت عبلـة أن يـصلَ المُغَنّـي إلى اللّـونِ الـذي ترتديـه، عنـدها سيسمَعُ عنترة الوصفَ فيعرف أنّهُ يقصد عبلة فيأتي ويقتله فاتّـصَلَتْ به قائلةً:

"يلا وِدنا نروّح".

الصّديق الوفيّ

بعد مُنتصفِ شهر أيلول تحديدًا، يتفقّدُ "عيد" أدَوات الحِراثَةِ وعلى رأسِها "تراكتور الفورد" الرَّابضِ في مكانه منذُ أواخر الشّتاء الماضي كَجُلْمودِ صخرٍ أبيٍّ لا تهُزّهُ الرِّياح ولا تقهرهُ تقلُّبات الفُصول، صاحبُ الأنَفَةِ المَعهودَة وراعي الهِمّة المَشدودة، وأهلٌ لِكُلِّ نِيَّةٍ مَنشودّة، دروبهُ في السّهلِ والوَعر مَشهودَة، وسيرتهُ في أرجاءِ المَعمورةِ محمودَة.

يقتربُ منهُ "عيد" كالفارسِ الذي يعرفُ حِصانهُ جيّدًا، وبنَظرةٍ فاحصةٍ يرى أنّ الإطارات يلزمُها بعض النّفْخ، ولكن وضعها العام "يكادُ يكفي"، رُبّما في المَوسم القادم سينفخها، (أو إذا مرّت شاحنة صُدفةً) والكُرسِيُّ ما زالَ عليه نفس "الجاعد" منذُ عامَيْنِ ووضْعهُ "جيّد بالتّقريب" رُبّما يحتاجُ إلى نَفْضٍ بسيطٍ لإزالةِ شَعْر القِطط وريش الحَمام.

ولكن..

بَقِيَ هَمٌّ عيد الكبير، وهو:

هل سيشتغِلُ المُحرّكُ أم لا، وما وَضْعُ الأسلاك الكهربائية في غياب البطّاريّة التي كان في كُلِّ موسمٍ ينوي أن يشتريها، ولكن حين

يدورُ المُحـرّكُ "بالتّعْـشيقة" يؤجّـلُ أمْرهـا إلى الموسـم القـادم، وهكـذا يَعْتَلي "عيد" ظهر التّراكتور بعد أن أزاحَ جِـذع الهَـشيمِ الـذي يَرتَكِـزُ عليه الإطار الكبير، وفي خِفَّةِ الخبير لَكَمَ الغَيارَ إلى الخَلَـفِ، وضـربَ بِشِدّةٍ دوّاسة الفرامل المُزدوجة بقدمهِ، فبدأ "الفـورد" يَتَهـادَى بـبُطءٍ، ثُمّ بشيءٍ من الحَركة كالحِصانِ الذي فُـكَّ لِجامـهُ، وأخـذتِ الـسُّرعة تزدادُ، وما هي إلاّ عشرة أمتارٍ حتّى رفعَ عيد قدمـهُ عـن "الكلاتـش" فَاضطرْبَ " الفورد" ودارت أحشاؤُهُ كَمَنْ دَبَّت فيه الحياةُ بعدَ سبات طويل، وصدرَ صوتهُ المَعهود، وَمَرْحَبًا (بعَصْروم الدّخَنة) الـذي يُبـشّرُ أنّ "الفورد" بخيرٍ وصحّةٍ وعافيةٍ، وسيمضي مع صاحبهِ موسمًـا آخـر بلا "بطّاريّة".

"حطيط"

(جار جديد)

بعدَ أن أشرقت شمسُ الرّبيع الدَّافئة وأرسلت أشعَّتها الذَّهبية على الرَّوابي والتِّلال، وتَلألأت قطَرات النَّدى التي بَلّلت العُشبَ الأخضر، كان "عيد" يجلسُ على حَجرٍ كبيرٍ أمام الخَيمةِ يرتشفُ كأسَ شايٍ ممزوجٍ بالبابونج وقد بَدا مُطرِقًا وهو يُخطِّطُ لِتقسيمِ "حَوْش الغنم" بين الأغنام وصِغارها، أمّا زوجتهُ فقد كانت تَطرَحُ آخر رغيفٍ لها على الصَّاج وهي تضربُ كَفَّيْها ببعضِهما في إشارةٍ للنَّهاية.

صَبَّ "عيد" كأسًا آخرَ، وعلى صوت ضجيج (كَرْكَعَة) قادمٍ من بعيد تَوقّف عن الصّبِّ وأعاد (البُرّاد) بحركةٍ بطيئةٍ وهو يستَقصي مصدر الصَّوت ويُديرُ وجهَهُ من ناحيةٍ إلى أخرى واستمرَّ صوتُ الضَّجيج حتى وَضُحَ أكثر حين أصبحَ كالطَّرَقات المُتتالية، فالْتَفَتَ "عيد" ناحية زوجته ولمّا التقت عَيناهُ بعَيْنَيْها قالت:

– "حطيط".

وقف "عيد" يَشْرَئِبُّ بعُنقهِ إلى أعلى صارفًا النَّظرَ عن تخطيطاته لهذا اليوم، وما هي إلاَّ دقائق حتى أطَلّ تراكتور "الفورد" يَجُرُّ عَربةً فعَزّزَ بذلك قول زوجته قائلاً:

–"بالعَوْن حِطيط".

واصَلَ التَّراكتور مَسيرهُ كالذي يبحث عن مُستقرٍّ له، والمسافة تبتعدُ عن مكان عيد إلى أن توقّفَ وهدأ الضَّجيج وانقطعت (الكَرْكَعَة)، وما هي إلاَّ ساعة حتّى بدأ القادمونَ بنَصْبِ خيمتهم، عندها انتعلَ عيد حذاءَهُ وهرول نحوهم وقبل أن يصلهم بدأ بالتَّرحيب والتَّهليل:

–"حيَّ الله الضيوف.

أمَّا الجيرانُ الجُدد فقد أتَمُّوا تجهيز خيمتهم وأشعلوا النّار وفرشوا "الشّق" ممّا جعل عيد يسبقهم قبل أن تُخرَج "البكارج" من صندوقها بقوله:

– "القهوة عندي والغدا صار".

وألَحّ عليهم أن يذهبوا معه في الحال إلى بيته ليكرمهم كما جرت العادة بين الجيران، حيث لِكُلِّ جارٍ جديد يَحُطُّ رِحالَهُ بالقرب من أيّ مضارب أو حتّى بيتٍ واحدٍ وَجَبَ على المُقيم إكرامه فيُقريهِ بشاة، وما هي إلاَّ بضع ساعة بعد القهوة حتَّى اختار "عيد" خروفًا سمينًا وذبحَهُ ليُقري ضيوفه.

تحت الصّفيح

لم تهدأ الرّيحُ بعد، ولكنّها أقلّ شدّةً منها في اللّيلة الماضية بعـدَما عصفتْ بكُلّ ما اعترض طريقها ونفضت كُلّ مـا صـادفَها بعُنفوانهـا، وتَعَسّسَتْ بجُرأةٍ صَـفائح "الزّينكـو" في سَـقف "الـصّريف" وجَوانبـه، وعلى صفيرها الـذي يعلـو ويهـبط، نامـت "نايفـة" في حـضن أبيهـا تتقلّبُ كُلّما اختلط صفير الرّيح بصوت المطر المنهمر.

أمّا في هذه اللّيلة الباردة الهادئة إلاّ من بعض هبّاتٍ متفرقة يتوهّجُ لها الجَمر في الموقـد، فـيجلس الأبُ متعبًـا شـارد الـذِّهن، يعـودُ مـن شُروده ليُلقي نظرةً على سيجارته ويلوذ بصمتٍ طويلٍ قبل أن يجيـب عن أسـئلة ابنتـه المتكـرّرة ثـمّ ينظـر لـيرى في عينيهـا عـدم الاقتنـاع بأجوبتهِ القصيرةِ والمُقتضَبة، ممّا يجعلها تعاود تكرار أسئلتها بـصيغةٍ جديدةٍ مرّةً أخرى.

الصيف والحصاد

ليلةٌ ساخنةٌ أيضًا هذهِ الليلة كَسابِقَتها وأشَدُّ سُكونًا، ونَسيمُ المساءِ كأنَّهُ في حَديثٍ مع الشّفَقِ فلا هَبوب ولا نسمة لَعوب، ممَّا جعلَ دُخانَ النَّارِ يَستقيمُ مُندَفِعًا إلى الأعلى وحَسيسُ النَّارِ يَتناغمُ مع صوتِ اصطِلاءِ "البكرَج"، فتَمتَدُّ لهُ يدُ "عيد" المُتْعَبةُ وتَسحَبهُ إلى الوَراء.

مُتعبَةٌ حقًّا يدُ "عيد"، شاحِبَةٌ تَكسُوها الخُدوشُ وكأنّها مُتَوَرِّمة، وكذلك جَسَدهُ مُتعَبٌ، وعِظامَهُ ما انْفَكَّتْ تَتَفرقَعُ كُلَّما تَحرَّك، فاليومُ هو أوَّلُ يومٍ في الحَصادِ والزّحْفِ والقُرْفُصاءِ تحت شمس الصّباح الساخنة، فهذا أمرٌ مُتْعِبٌ في ساعاته الأولى.

وكما يُقال: "الأجرُ على قَدرِ المَشَقَّة" فلقد كان العَشاءُ دسمًا وطيّبًا أعَدّتْهُ له زوجتهُ من ديكٍ عربيٍّ وقعَتْ عليهِ القُرعَةُ من بينِ ثلاثة.

"ويا حَصَّاد اكرُب سِيرَكْ".

حِكايَةُ حَصّاد

جاءَ وحَبَّاتُ العَرَقُ تَقطُرُ من جَبهَتهِ، جلسَ على الفِراشِ وسطَ فَرقَعَةٍ من عِظامهِ كصَوتِ الرّعْدِ القادم من بَعيد، تَناوَلَ الإبريقَ وَعَبَّ منهُ الماءَ عبًّا حتَّى سالَ من شِدقَيْهِ، وَبَدَتْ "جَوْزَةُ حَلْقَهِ" كَمَكُّوكِ الطَّابعَةِ القَديمَةِ تَعلُو وَتَهبطُ بانتِظامٍ سَلِسٍ، وَشُعَيْراتُ ذَقنهِ المَبلولة كالزّرْعِ الذي تَأخَّرَ حَصَادهُ فَمالَ على نَفسِهِ.

وفَجأةً ....

خَفّ خَريرُ الماءِ المُتقطِّرِ مِن فُوّهَةِ الإبريقِ ثُمَّ انقطَع، وَصاحِبُنا لم يَرْتَوِ بَعد، فأغْمَضَ إحدَى عَيْنَيهِ ونَظَرَ بالأخرى إلى مَوقِعِ الانسِدادِ وحينَ رآهُ ...

صاحَ في زوجتهِ بصرخَةٍ مدوّية ارتَجَّتْ لها الفَناجينُ المُكَوَّمةُ على "الصِّينيّة"، وانتبهَ لها الحِمارُ فَعَدَلَ أُذُنَيْهِ، واعتدلَ على إثرها الكَلْبُ الباسطُ ذراعَيْهِ من قَيْلُولَتهِ كالقَتيلِ العائِدِ إلى الحَياة.

وقال:

– تعالي !!!!!

"هاتي لي مَنديلي".

مُعلّمة من المدينة

كان ذلك اليوم في بداية السّنة الدّراسية، في ساعةٍ مُبكّرةٍ بعض الشّيء، وصل "عيد" فرِحاً بملابسهِ الجديدة وحقيبتهِ وحذائهِ الجديد، وبدأ اللّعب مع زملائهِ الذين افتقدهُم طيلة الإجازة، أي بعد شهرين بالتّمام والكمال.

أطلّت من بعيد سيارة المُعلّمين الوحيدة التي تُقِلُّ جميع المُعلّمين تقريباً، وحين اقتربت ووصلَتْ توقّفت وبدأ المعلّمون يتقافزونَ من صندوقها الخلفي، وفجأةً فُتِحَ الباب الأماميّ بجانب السّائق وترَجّلتْ منه امرأةٌ لم يرَ "عيد" مثلها في حياته وهي المرة الأولى التي يرى فيها أقدام امرأة إلى الرُّكبة تمشي بحذاءٍ مَعقوفٍ له انحناءٌ قويٌّ نحو الأسفلِ ثُمّ ينعدل نحو أصابع قدمها المُتَراكمة فوق بعضها.

انتبَه جميع مَنْ في السّاحةِ لهذا المشهد الغريب ولم يخطر ببالِ أحد من الصّغار أن تلك هي مُعلّمة جديدة فيما أشاعَ البعضُ منهم خبراً غير مؤكّد أنّها "بِتْقَرّحْ الظعوف" أيْ مُمرّضة، خجل "عيد" من أن ينظر إليها طويلاً وأخذ يستَرِقُ النّظرَ إليها وإلى شعرها الذي لم يُشاهد مثل نُعومتهِ وطوله سوى ذيل فرسهم بينما هَرْوَلْنَ زميلاته البنات في خجلٍ ضَحوكٍ واخْتَبَأنَ خلف الصّف كي يُراقبْنَ المرأة

الجميلة عن كثب.

والمعلمون سادَهُم بعض الصّمت الأنيق على غير عادتهم من الدُّعابات بينهم والضّحك، ولم يُسمع إلاّ ضجيج بناطيلهم العريضة وأحذيتهم الضّخمة على الحَصَى.

لم يكُن هَمُّ "عيد" كُلّ هذا، بل كان يفكّرُ هل هذا صحيح أنّ امرأةً تستطيع أن تمشي هكذا بهذا اللّباس وهو الذي لم يرَ أكثر من كاحِلِ أمّه أو ساعِدها حين تُخرج الزّبدة من "السّعن"، وحاوَلَ أن يجد تفسيراً في نظرات وهمسات زملائهِ ولكنّهُ وجدهم في حيرةٍ تفوقُ حيرته، وعَلِقَتْ في ذهنه صورتها اللاّمعة وبياض قدميها الذي شغل مُخيّلته الطّفولية ولماذا هي بيضاء ومكشوفة.

وبعد مضي وقتٍ قليلٍ وقفَ معلمٌ طويلُ القامةِ له شاربٌ دقيقٌ وقرَعَ الجرس النُّحاسيّ الكبير طويلاً فانتظمَ الطّلاب كالنّملِ الذي سلكَ طريقاً نحو قطعة حلوى فاصطفّوا في صفوفٍ عديدة، وبعدها دخلوا إلى صفوفهم والشّغلُ الشّاغل هو مشهدُ الصّباح، تفرّق الطلاب في الصّف الرّابع وتسابقوا إلى المقاعد وتعارَكوا قليلاً، وعيد فِكرهُ ما زال مشغولاً واكتفى بأي مقعدٍ في الوسط وبدأ يستعيدُ المشهدَ من جديدٍ ويُحلّلُ ويَضعُ بعض الإجاباتِ لأسئلةٍ لم يتوقّع أن تجد لها مُستقرّاً في عقلهِ البريء.

وفجأة ...

حدث ما لم يخطُر ببال عيد ولا أقرانه، إذ لمحَ خيال المرأة بَطَلة مشهد الصّباح قد مَرّ قُرب النافذة وبعدها بلحظةٍ وقفت المرأة بكاملها بالباب ودخلت الصّف ببُطء تختالُ على وقْعِ صوتٍ صادرٍ من أسفل حذائها في ذهولِ التّلاميذ الصغار، فانقطع الضّجيجُ والصّخب ونهض "خليل" من فوق صدر أحمد وأفْلَتَ عَليٌّ شَعرَ مُحمّد ونظروا في خجل قاتلٍ إلى المعلمة، نعم إنها المُعلّمة الجديدة.

وعيد الذي لم يَرمش بعدُ من النّظرة الأولى سمع صوت المعلمة حين نطقت جملة طويلة لم يُفهَم منها إلاّ صباح الخير "والرابع ب".

وأكملتِ المعلمةُ حديثها الناعم وهي تَرُدّ شَعرها المُندَلق على كتفيها بينما يلتفتُ عيد إلى زميلتهِ نايفة ليَرى طرف شعرها المُجَعّد من تحت منديلها المَعقود حول رقبتها ويُقارن، ثم يعود ليستمع لكلام المعلمة غير المفهوم بمُجمَلهِ ولكنّه استطاع أن يُحدّد أنها تقرأ أسماء طلاب الصّف من دفتر اليوميّات الكبير واستغلّ وقت انشغالها بتَهْجئة أسماء العائلات التي لم تنطق منها اسماً واحداً صحيحاً ونظرَ إلى تلك القدمين العاريتين من خلف كُمٍّ قميصهِ وبعدها حَوّلَ نظرهُ نحو نايفة وأقدامها وبنطالها الذي غَطّى كعب جزمتها وخلال

ذلك رأى بُقَعاً صفراء صغيرة فأيقنَ أنّ نايفة قد تناوَلَتِ العدسَ على العَشاء.

كُلّ هذا أيضاً لا يهُم، ولكن المهمّ الآن كيف سيفهم ما تقولهُ هذه المرأة وكيف ستفهمُ هي لهجته حين يقول لها:

– "خليل قرط حذوتي يا معلمة".

فترُدّ المعلمة:

– " كيف يعني قرطها في احد عندكم بيقرُط كنادر ؟"

ويتضّحُ بعد ذلك بسنين أن "قرط" يعني عَضّ أو اقتطع بأسنانه بلهجة بعض مناطق الشّمال وليس (رمى) كما هو في قاموس عيد وأصحابه.

وأيضاً هذا ليس مُهمّاً، عيد ذلك التّلميذ النّجيب كيف سيُقاوم خجلهُ ويُشارِك ويرفع إصبعه عالياً وكم يخشى أن تُطبطِب على ظهره فيُعيّرهُ زملاؤهُ بعد ذلك.

ويبدأُ الدّرس الأوّل ....

بين الحلم والحقيقة

كان "عيد" قد أعَدَّ فِراشَهُ للنَّومِ أمامَ الخَيْمةِ تحتَ السماءِ والطّارق، وجلسَ فيه مُتَّكِئًا لِيستَدْرِجَ النُّعاسَ، وبقيّةُ سيجارته لا تَزالُ بين إصبعَيْهِ تَتوهّجُ في حلكةِ الظَّلامِ كُلَّما استقرّتْ بينَ شَفَتَيْهِ، ثُمَّ تَعودُ لتَخبو بعض الشّيء، تَتبعُها سِلسلةٌ من السّعلاتِ المُتَتاليةِ تكادُ أن تُوقِفَ الشَّهيقَ والزَّفيرَ فَتتَحَوّلُ إلى ما يُشبهُ القَرقَرَةِ حتَى تَنتهي بِشَهيقٍ طويلٍ في صوتِ تَنهيدَةٍ صادرةٍ من الجَوف.

والكلبُ على مَقربّةٍ منهُ يُلاحِقُ بَأذُنَيْهِ حركة فَرَاشاتِ اللَّيلِ وهي تَرتطمُ بسراج الكاز ثُمّ تُقلعُ ثانيةً وسطَ هُدوءٍ لا يَقطعهُ سوى سَعْلَة التّيْسِ من حينٍ لآخر وصوت إحدى الماعِزِ تَحُكُّ رَقبتها بِظِلْفِها فتُحدِثُ طَقطقةً تَطربُ لها الأذُنُ لو دامَتْ. و"عيد" في فراشهِ يُبَدِّلُ قَدمَيْهِ فَيَثني إحداهُما ويمدُّ الأخرى ثُمّ يُعيدُ الكَرَّةَ للأخرى إلى أنِ استسلمَ للنُّعاسِ وغَطَّ في نوم عميق وَعَلا صوتُ شَخيره.

قامَتْ زوجتهُ على صوتِ خَشْخَشةٍ صادرةٍ من "حوش الغنم" فذهبَتْ لِتتأكَّدَ وتَطمئِنَّ، فدخلَتِ "الحوش" فلم تجد شيئاً، في هذه اللّحظات كان عيد قد بلغَ في حُلمهِ إلى لقائهِ مع حَبيبتهِ وسطَ المراعي وبينَ الأغنام كَيْلا يَنكشف أمرهما، ولَّما رأى نفسهُ يَستعدُّ للجلوسِ مع

حبيبته عندها نطحَ التَّيْسُ زوجتَهُ فصرخَتْ وعلى صراخها استيقظَ من نومهِ وهو يَركُضُ نحوها ويقول:

– "اسكتي اسكتي فضحتينا بين الرِّعيان" يلا قومي روّحي وبُكرة بنتَلاقى".

لم تفهَم زوجتهُ ما قالَهُ ولم تَنتبه بسببِ ألَمها، ومن صوتِها المَعروف أدركَ عيد أنَّها ليسَتْ حبيبتهُ التي كانت في حلمه الجميل، بل زوجته فاستدرك قائلاً:

– "بُكرة بُكرة بودِّيكي على الحكيم".

اللاهِثونَ خلفَ السَّراب

عُيونٌ تَترصّدُ وَقَلْبٌ يَنبضُ باضطرابٍ وَكأسُ قهوةٍ قارَبَ على الانتصافِ في رُكنِ مَقهىً صغيرٍ لا تراهُ الشّمْس، والأنظارُ تَرقبُ المَدخلَ وتتفحَّصُ وُجوه الدّاخِلين بقَلقٍ وحَذرٍ وشَوْق.

يَظُنُّ أنَّهُ سَيُميَّزُ مَنْ يَنتظرُ دونَ سابقِ مَعرفَةٍ مُعتمدًا على حَدسهِ الذي لم يُخيّبْهُ حتَّى الآن، طال الانتظارُ وكُلُّ الوُجوهُ الدّاخلةِ بدَتْ لهُ كأنّها نسخة واحدة تَتَعَدَّلُ أحيانًا وتَتموَّجُ ما بين الجَمالِ والمَقبولِ والقُبحِ والطُّولِ والقُصر والأناقة والسّذاجة، فلا يرى فيها مَا ارتسمَ في ذِهنه، فَهُم عاديِّونَ جدًّا لدرجةٍ جَعلَتْهُ يتساءَلُ كيفَ رَضُوا بحالهم وأشكالهم، وكيفَ هُم في عُيونِ أحِبّائِهم نِسبةً لِما في مُخيِّلتهِ.

أراحَ عَينيهِ قليلاً وعادَ يَرتشفُ قهوتهُ كأنّهُ يُبلِّلُ لِسانهُ منها وحَسْب، ليُطيلَ عُمر فِنجانهِ، فقد مضى أكثر من نصف ساعة على الموعد ولا من طارقٍ لطاوِلَتهِ إلاَّ عين صاحب المَقهى الذي يراقبُ مَنسوب القهوة في الفنجان في كُلِّ مرَّةٍ يَمُرُّ بجواره، المِنْفضَةُ أمامَهُ امتلأت بأعقاب السَّجائرِ وشعر أنَّ موعدهُ ما كان إلاَّ تجربة للقاءٍ لن يتمَّ بهذه السُّهولة والطّريقة، وبدأ اليأسُ يتسلّلُ إلى ساحات حَماسه وفُضولهِ، واستندَ في مقعدهِ مُتأهِّبًا للقيامِ لدفعِ الحساب والمُغادَرة،

وأثناء ذلك سمع صوتًا يعرفهُ جَيّدًا يطلبُ فِنجانًا آخر، صوتٌ أَلِفَهُ منذ أشهرٍ وتعوّد عليهِ وحفظَ نبراته ولكنّهُ لم يرَ أو يعرف أيِّ شيءٍ غيرهُ.

وقفَ مشدوهًا دون أن ينظر إلى الرُّكن المقابل تمامًا للرُّكنِ الذي جلس فيه، هذه الجالسةُ التي جاءَتْ بعد وصولهِ بدقائق هي صاحبةُ الموعدِ، نعم هي التي لم يرَ فيها أيّ شيءٍ من المواصفات التي كانت تصلهُ عبر الصَّوت والرّسائل، نعم هي التي لم يُعرْها أيَّ انتباهٍ منذُ البداية، بل انتظر التي بصوتها ورسائلها رسمَتْ نفسها في خياله.

هي الأخرى أيضًا حينَما جلسَتْ صرفَتْ نظرها سريعًا عن شابٍّ يُشعلُ سَيجارةً من أخرى، فالذي واعدَتْهُ لم يُبقِ من المثاليّات زاويةً إلاَّ غَطَّاها، فهو حتّى لا يُدَخِّن.

السّمراء والشّمس

في وقتٍ كهذا والكُلُّ يبحثُ عن الشَّمسِ الدَّافئةِ، يَستَلقي عيد خلفَ "الرّواق" في تلك المساحة الصَّغيرة المُنْحَنِية بين (الشَّادِحَين) مُنتَعشًا بدفءِ الشَّمْسِ السَّاخنة، تُدَغدِغُ ما انكشَفَ من ساقَيْهِ وكَتفهِ وبعض صَدره، وبطنه التي برزت مائلةً كَلِيَّةِ الخَروف.

جاءت زوجتهُ تَتهادى في مشيَتِها وأثرُ النُّعاس في عينيها وهي تُظِلِّلُ جَبهتَها بصحنٍ كبيرٍ مليءٍ بعُروقِ "الخُبَّيزة" وقالت له:

– قُم يا رَجُل، تزَحْزَح قليلاً أفسِح لي في الزَّاويةِ المُظَلَّلَةِ عندك، فقد آذَتْني الشّمس في بَشَرَتي وبدأ وَجْهي يُؤلِمُني:

اِلْتَفَتَ عيد إليها بعَيْنين مُغمَضَتَيْن وقال:

– يا امرأة، واللّه لو أحرَقَتْكِ كُلّ شَمسِ النّقَبِ فلن تَزيدَ في سمارِكِ قدر شعرة واحدة.

– اجلسي هُنا، "وخلّينا نتَمَشْرَقْ زي العالم".

فاحتارَتِ المسكينة، أهُوَ مَدَحَ سمارها أم ذَمّهُ.

لا يزالُ يُحدِّثُني وهو يَحكُّ باطِنَ كَفِّهِ دون تَوَقُّفٍ، وسيجارتُهُ تَهتزّ في شدقه كَمُؤشِّرٍ أصابَهُ خَلَلٌ، تَعلو وتَهبط مع كُلِّ حَرفٍ يَنطقهُ، وتتَدَلَّى كُلّما ابتسم، ينظرُ إليَّ لِيبْحَثَ عن آثارِ طُرفَتهِ على ملامح وَجهي، فأتَظاهَرُ بأنّني أنتظِرُ المَزيدَ لأفهمَ النِّهايَةَ بينَما هو ينفثُ سَحابةً كثيفة زَرقاءَ منَ الدُّخانِ ثُمَّ يَلتفتُ إلى حَفيدتهِ ويقول لها:

– "يمكن دورنا وِصِلْ".

فترفَعُ الحَفيدةُ منكبَها إلى مُحاذاةِ أذُنها وتُنزِلهُ دونَ أن تَلتفِتَ إليهِ وهي مُكِبَّةٌ على هاتِفها الصّغيرِ تَصفَعُ رُكبَتَها من حينٍ إلى آخر عندما تخسر في لُعبَة "الثُّعبان"، فتُعيد الكَرَّةَ من جديد، ويعودُ جَدُّها لِيُتِمَّ طُرفَتَهُ التي لم يَصِلني منها إلاَّ البحّة في الصّوتِ والفَواصل الطويلة بين كُلّ جُملةٍ وأخرى. وفجأةً وجَدْتُني أهتَمُّ إلى حَدَّ المُبالَغةِ في تَقاسيمِ وجههِ وهو يَتحدّثُ والتّعابيرُ على مُحَيّاهُ تَتغيّرُ مع مَخرجِ كُلِّ كَلمةٍ، وتلكَ الشَّعْرَةُ من حاجبه التي اشتبكَتْ مع إطارِ نَظَّارَتهِ جعلَتْني أكادُ أن أمُدّ يَدي لأنقذَ عينهُ من سُرعةِ الرَّمش، والرَّجُلُ لا يُبالي وقد أخذَتْهُ الحَبكَةُ كلّ مأخذ في حديثهِ إلى مُواكبةِ أحداثِ

طُرفتهِ. حينَها أيقنْتُ أنَّهُ سيُنهيها، وهَيَّأتُ نفسي لِضحكَةٍ مدوّية يرْتَجُّ لها شدقاي وتَنكمِشُ منها حدقتاي، فقاطعَتْهُ الصّغيرةُ بقولها:

– "جِد جِد ... دورنا وصل".

نصيحة ...

إذا رَوى لكَ رجُلٌ مسنّ طُرفةً أو حديثًا فاسْمَعْهُ حتّى النِّهاية ولو بنَظَرِك.

أتَذْكُرُ يا هذا ...؟

أتَذْكُرُ عندما كُنتَ تُطِلُّ على العالَمِ من خَلفِ كَتفِ أَمّكَ الجالسة وسطَ حَشدٍ من النَّساءِ يَتَحدَّثْنَ في أيّ شيءٍ لِيَصْنَعْنَ الضّجيجَ المَعهود في الأفراح، أو هكذا كُنتَ تَظُنّ.

أتَذْكُرُ إصبعَكَ الذي كُنْتَ تَحشُوهُ في فِيكَ حتّى يُلامس آخر ضِرسٍ فيه، وعَينكَ على قَدرِ اتّساعها تَنظرُ إلى طَبَقٍ كبيرٍ على أحدِ البَراميلِ وعليه كَومة من الحَلوَى، أتَذْكُرُ كم مرّة رَفَسْتَ ظَهْرَ أمّكَ بِرُكبَتِكَ لِتَنْتَبِهَ لكَ وتَفهمَ لِوحدها أنّكَ تُريدُ أن تَملأ جيوبكَ بالحَلوى، لتأكلها واللُّعاب يَسيلُ من أشداقكَ على صدركَ مُرورًا بِثَوْبِ أمِّكَ الجَديد، وتمسح أنفكَ في "قُنْعَتِها".

أتَذْكُرُ أنّكَ رأيتَ أطفالاً كالوُحوشِ بالنِّسبةِ لكَ يَقومونَ بحركاتٍ غريبةٍ ومُريبةٍ ويُنادونَكَ ولكنّكَ كنتَ وراء حِصنٍ مَنيعٍ بَعيدًا عن إشاراتهم المشينة وألفاظهم القَبيحة، وألْسِنَتهم كالمَباردِ في أفواههم.

أتَذْكُرُ أنّك لم تفهم حجمَ الحَدثِ وما شأنُ تلك المَرأة المُغَطّاة بالأسودِ في آخرِ الخَيمة ولا يقربها أحدٌ سوى عجوزٍ تَطردُ الصِّغارَ عنها وعن كأسِ الشَّاي الذي قُدِّمَ لها قبلَ ساعةٍ وما زال في مكانه.

أتذكُرُ أنّكَ كُنتَ لا شَيءَ ...لولا أمّك.

صيفٌ وسَمَر

وفي ليلة صيفيّةٍ كهذهِ تبدو الخيمةُ كبساطِ الرّيحِ المُعَلّقِ بين السّماءِ والأرض مَطويّة الأطراف والجوانب يجلس تحتها أهل البادية في ليلة سَمَرٍ هادئة، بينما يُسمَعُ حَسيسُ "بُرَّاد" الشّاي وهو يَصطَلي على حرارة كَوْمَةٍ من الجَمر، وعلى بصيص قنديل الكاز يتقابَلُ "المْحِلِّي" وأحد جيرانه على لُعبة "السِّيجة" بينما يقفُ طفلهُ بجوار القنديل ويصنعُ بِيَدَيْهِ من الظِّلال أشكالاً مُتَحَرّكةً تبدو كمَسرحِ العرائسِ القديم، وفي الجِهة الأخرى خلف "المَعَنَد" تجلس "راعية البيت" على ضوء القمر ومغزلها في يدها لا يَهدأ ولا يَستريح، هي الأخرى تستغلُّ هذه اللّيلة لإنجازٍ آخر في مسيرة التّجهيز الطويلة لنَسْجِ "شُقَّة" جديدة، وعلى رُكبتها قد نَعِسَ ونامَ صغيرها وهو يُراقبُ استدارة المغزل في كُلّ مرّة.

مَشاعِرُ قِطّ

دارَ الزَّمانُ يا "سندريلا" وأصبحَ في عُنقكِ قِلادةٌ أنيقةٌ، وتُطِلِّينَ عَلينا من سيَّارةٍ فارهةٍ.

ماذا أقولُ يا ناكِرةَ الجَميل وأنا أراكِ أنظَفُ من الفَرْوِ الذي يُحيطُ بِكَتِفَي سَيِّدَتكِ، ولكن قُولي لي يا صديقَتي القديمة:

– ألا تَنتابُكِ لَحظاتُ حَنينٍ إلى حياتنا؟، إلى القَفزِ في الحاويات والتَّنَقُّلِ بينَ الحاراتِ؟ ألا تَشتاقينَ لِلتّجَوُّلِ في الأزقَّةِ والنَّومِ في الحَدائقِ وتحتَ السّيارات؟.

أمّ أنَّكِ تَعوَّدتِ على الأطعمةِ اللَّذيذةِ والرّاحةِ والنُّعومةِ في قَصرِ سَيِّدَتِكِ؟.

أوَتَذكُرينَ أيَّامَنا التي قَضيناها هُنا، نعم هُنا في هذا المَكانِ نَبحثُ عن بقايا الطَّعام؟ نختلِفُ وَنَتنازَعُ، ثُمَّ نَتآلفُ ونَتقاسَم.

يـــاااا للزَّمانِ حينَ يَدورُ دَورَتهُ، كُنتِ تُحِبِّينَ الألبانَ كثيرًا وكُنْتُ أرمي لكِ عُلَبَ "الشّمينِتْ" من ظَهرِ الحاويةِ، وأكتفي أنا ببقايا المكارونا والعَدس، لا عجب فنحنُ في حارةٍ فقيرةٍ لا تعرفُ اللَّحومَ إلاَّ في الأعيادِ والمُناسبات.

وَها هو حَظُّكِ الجَميل الذي اِنتَشَلَكِ من حياةِ البُؤسِ إلى الثّراء،

إلى اللَّحْمِ والمَرَقِ والحَليبِ الطَّازجِ والنّومِ على مِسْحَةٍ نَظيفةٍ ناعِمةٍ بلا خوفٍ أو قَلَقٍ من كلبٍ يُطارِدُكِ ولا بَشرٍ يَرميكِ بَحَجرٍ على حينَ غِرَّةٍ أو يُغلق بابَ الحاويةِ على ذَنَبِكِ.

أعرف أنّك كُنتِ تُحَبِّذينَ مُرافَقتي في رَحلاتِ البَحثِ عن الطّعام، وكُنتُ سأعترفُ لك بحُبِّي يومَ عَلِقَتْ رأسُكِ في عُلبة (الكُوتَج) وأخَذْتِ تَمشينَ على غيرِ هُدًى، تلك اللَّحظةُ التي قَضَتْ على حُلمي الكبيرِ مَعكِ عندما اِمْتَدَّتْ يَد تلكَ السَّيِّدة وساعَدَتْكِ على التَّخلُّص من العُلبة وأخذتْكِ معها، فَذَهَبْتِ وذَهبَ معكِ كُلِّ شيء، نعم كلِّ شيء.

لا أدري يا ... "سَندريلاّ" أخِيانَةٌ هيَ أم نَصيب؟.

هدايا وتقاليد

يُحكى أنّ ...

كُلّ صَبيٍّ خَطَّ شاربهُ وبدَتْ عليهِ مَلامح الرُّجولةِ المُبَكّرة، كان عليهِ أن يقبلَ عُلبة سَجائر كَهَدِيّةٍ في العُرس الذي حضرَهُ مع أهلهِ، وذلك يوم الجمعة عادةً قُبيلَ العَشاء بقليل حيثُ يُوَزِّعُ أهل العريس عُلَبَ السّجائر على كُلّ الحاضرين سَواء كانوا من المُدَخِّنين أم لا.

منهم من يُعطيها لغيرهِ من المُدَخِّنين، ومنهم مَنْ يُخَبِّئها إذا كان من الشّباب المُدَخّنينَ سِرًّا، ومنهم من يَحظى بالتّجربةِ لأوّلِ مرّةٍ في التّدخين فتكون لهُ نقطة انطلاق. أمّا هَدايا النِّساء فهي مَناديل للصّبايا و"شاش أبيض" للمُتزوِّجات.

كَما تدِينُ تُدَان

هُـــوَ ....

كُلّ لَيْلَةٍ يُعِدُّ لَها الكُرْسِيُّ بِكُلِّ حِرْصٍ، وَيَهْتَمُّ بِمَكَانِهِ جَيِّدًا قُـرْبَ المَائِدَةِ، بِحَيْثُ لاَ تَحتاجُ هِيَ أنْ تُحَرِّكَهُ حِـينَ تَجْلِـسُ عَليـهِ لِيَتَنَـاوَلا معًا وَجْبَةَ العَشَاءِ عَلى ضُوءِ الشُّمُوعِ.

وَهِيَ ....

كُلّ لَيْلَةٍ تَتَمَنَّى أَنْ تُطْعِمَهُ مِنْ يَدِهَا حَبَّة الكُبَّـةِ الـشَّقْرَاء المُقَرْمَـشَةِ التِي تَكادُ تَنْفَجِرُ مِنْ فَرْطِ اِمْتِلاَئِها وَجَمَالِ تَنَاسُقِهَا.

وَفِي لَيْلَةٍ.....

عَلى ضوءِ الشُّمُوعِ أيْضًا، جَلَسَتْ وَقَابَلَتْهُ عَلى الكُرْسِيِّ الذِي أَعَدَّهُ لَها ككُلِّ لَيْلَةٍ، وبَدَأا تَناوُلِ العَـشاءِ، وَمَـدَّتْ لَـهُ يَـدَها بِحَبَّـةِ الكُبَّـةِ فَأَكَلَها، فأَرْجَعَتْ جَسَدَها مَسْرُورَةً فَرِحَةً إلى الكُرْسِيِّ، فَوَقَّعْـتَ أَرْضًـا وَدُقَّتْ عُنقُها حِينَ ارْتَطَمَتْ بِالمَزْهَرِيَّةِ خَلْفَها، وَماتَتْ في ساعَتِها.

الكُرْسِيُّ قائِمَتُهُ الخَلْفِيَّةُ مَكْـسورَةٌ، وَحَبَّـةُ الكُبَّـةِ دُسَّ فيهـا الـسُّمُّ الزُّعاف.

وَمَوْتُهُ مَسألَة وَقْـتٍ لَيْسَ إلاَّ !

نظرات وانتظار

ما زالَ ينظرُ إليها حتّى كاد أن يقتلعها بعَيْنَيْهِ من مكانها وهي هادئة بلا حِراكٍ في بُرودتِها وصَفائِها، حَوَّلَ نظرَهُ عنها لِلَحْظةٍ ثُمّ أعادَهُ بكُلِّ جُرأةٍ وهو يقفُ في صمتٍ عميقٍ مُتَأجّجٍ كالذي يَستعجلُ أمرًا يتَوَقّعهُ.

ولكنّ الأحداثَ تَمُرُّ بطيئةً على المُنتَظِرِ كالعادة، اقتربَ منها بعض الشّيء أو قُلْ بمقدارِ لَمْسَةٍ مُحَدِّقًا في كُلِّ مساحةٍ فيها، عندها خَرَجَتْ من سُكونها كأنّها شعرَتْ بشيءٍ غير عادي يجتاحُها، وبحرَكاتٍ مُرتَجفَةٍ بَدَتْ على وَجهها بدأت تتأثَّرُ وكأنّ الأمرَ الذي أخْرَجَها من هدوئها هوَ من نظرِهِ إليها، ولُوحِظَ هذا جَليًّا من شبهِ الارتياحِ الذي اعتَرى وجهَهُ حين رآها تستجيبُ وتتَحرّك.

اقتربَ أكثر وكأنّه أيقنَ بأنّ الوضعَ يسمحُ الآن لا سِيّما حين شعرَ بأنّ تعابير وجهها لم تكُن كما كانت، بل ازدادت اضطرابًا وارتِجافًا، فأمْسَكَ بيَدِها وأنْزَلَها عن النّار بعد أن غَلَى الماءُ وأضافَ إليهِ ملعقة ونصف من القَهوة العربيّة وحرّكَها جيّدًا ثُمّ أعادَها على النّار لتُكمِلَ غَلَيانها.

" غَلاّية" على النّار.

من رُفوفِ الذَّاكرة

يُحكى أنَّ ...

في مهدِ الطُّفولةِ الأولى وأنت تعيشُ عالمكَ في روعتـهِ الأولى وفي قِمّـة الاستمتاع بأقصى درجات الحُرّيّة التي لا تحكمهـا إلاَّ حـدود تفـصل النهار عن اللّيل، وبعـد هـذا وفي لحظـةٍ كأنَّهـا آتيـةٌ مـن عـالمٍ آخـر تصغي لحديثٍ أشبهُ بقدوم حدثٍ يعرفهُ الجميع إلاَّ أنت.

ثُمّ أنّكَ تسمع كلمةً جديدةً تخترقُ ذهنـكَ الـصّغير فـلا يحتَويهـا لِحَجمها الكبير المَهيب، تلك الكلمةُ الدّخيلةُ على بيتكُم الصّغير التي ينطقُها أهلكَ ومَن هُم أكبرُ منـكَ بـشيءٍ مـن الحِـرص علـى إتقانهـا، وأنت تعجَبُ لِوَقْعِها في نفسكَ ولا تسأل كي تُتَـيحَ لعقلـكَ الـبريء أن يعيش بعض التّفكير في تلك الكلمة وهذا المُـسَمّى الجديـد بـين التّلَـذُّذِ والحيرة، ويكفيكَ خوفًا وفُضُولاً أنّك ذاهبٌ إليـه في أوّل يـومٍ ترتـدي فيه ملابسكَ الجديدة بعد أن تحرص أُمّكَ على غَسْلِ رأسـك وتـسريحِ شعرك وسط كَيْلٍ من الوصايا والتّحذيرات والإرشادات وهي تُعِـدُّ لـك بعض الأجوبة تقولها حين تُسألُ وقد تُعطيك نُبذةً عـن شـيءٍ هـي لا تعرفهُ فقط لِتُشعرك بالأمان والثّقة.

نعم، هي كلمـة "أسـتاذ" وفي لهجـة الكبـار (اسـتاز) ذلـك الاسـم

الغريب الذي ينقُلكَ إلى عالَمٍ غير عالمكَ، اسمٌ فيه من العَظَمَةِ ما فيه وأنت لا تدري ما هو أو مَنْ هو، ولكن عقلك يقول لك إنّهُ لَشَيْءٌ عظيم.

وتنطلقُ ورائحة البطاطا المَقْلِيّة تَعجُّ من حقيبتك التي تشبه عشرات الحقائب حولك، مستطيلة الشّكل ناعمة الملمَس ثقيلة المَحمَل حادّة الأطراف، لها أبَازيمُ حديديّةٌ قاسيةٌ يُسمَعُ لها صريرٌ عند الفَتح ورَنّةٌ عند الإغلاق.

ثُمَّ تصلُ إلى منطقةٍ هي أبعد ما وصلَتْ إليها أقدامك الصّغيرة لترى عدّة مَبانٍ مُبعثَرَةٍ تبدو كالقُصور التي وصَفَتْها لك جَدّتُكَ في حكايات (لَوْلَجهْ) ما قبل النّوم، وسُرعان ما تقتربُ فيجرفُكَ سَيْلٌ من الغُرَباء كبارًا وصغارًا لم يَذْكُرهُم لك أحدٌ من قبل، أو قُل إنَّ الحقيقة أكبر من كُلّ حكاية سمعتها في حياتك، تسمع كلامًا لأوّل مرّة وترى أشياء هي الأخرى لم يخطر ببالك أنّها موجودة، صراخٌ هنا وبكاءٌ هناك ونزاعٌ ومناوشات وحلقات لا تدري على ماذا يتفرّجون، ورجالٌ صُدورهم مفتوحة وشَعرهم طويل بعضهم يمسك بعَصًا قصيرة في يدهِ، أمَا وقد وَدّعَكَ عقلكَ وَشَرَدَ منكَ ذهنكَ لهَوْلِ ما رأيتَ وشعَرْتَ، فها قد عادوا إليك حيثُ وجدوكَ في مَوضِعٍ آخر، داخل حُجرةٍ كبيرةٍ تجلسُ على كُرسيٍّ وأقدامك لا تلامس الأرض، وحقيبتك ما زالت

تختبئُ خلف ظهرك، أو إنّك أنت اخْتَبَأْتَ أمامها من عشرات العيون التي تراقبك وقد تكون في نفس حالتك بل أكثر.

وفجأةً تجدُ نفسك أمام رجُلٍ يُشبه ما دارَ في مُخيّلتك قبلَ القدوم ينظرُ حولهُ ويُرتّبُ الأولاد في مقاعدهم ثُمّ ينادي عليهم واحدًا تلو الآخر فيسألُ عن الاسم ويكتبهُ في دفترٍ كبيرٍ ثمّ ما أن يصل إليك الدّور فتقوم وتمشي ... وتمشي ثُمّ يُخيّل إليك أنّك قد تَعِبْتَ من المَشي قبل أن تصل، فتواصل المَشي مرورًا بأكتافِ زملائك ووجوههم النَّاظرة إليك، لم يبقَ الكثير هي خطواتٌ وتصل فتَحُثُّ نفسك على المشي أكثر ليتغلّب انشغالك بمشيَتكَ على خوفك من عَظَمَة الموقف وَهَوْله، فتَمُرّ بما مرّ به من قبلك حيثُ يسجّل هذا الرّجل اسمك عنده وعلى جِلدةٍ دفترك أيضًا ثُمّ يفتحهُ ويكتب فيه أرقامًا بقلمهِ فتعودُ إلى مقعدك ورائحة الحِبر تتأجّجُ من دفترك.

ويبدأ الدّرس الأوّل في الصّف الأوّل للمرّة الأولى مع الأستاذ الأول.

تَعاليل

الشَّمسُ تَهوي نحو المَغيب بسرعةٍ والأجواء تـزدادُ بـرُودةً و"عيـد" يُسابقُ الوقت ليُنهي بعض التّرتيبات التي يُجريها كُلّ ليلـةٍ، كعَـزْل "البَهَم" عن أمّهاتها والتّأكّد من بعـض النّعـاج المُحتَمـل أن تلـد هـذه اللّيلة، وكذلك إغلاق باب "الحوش" بطريقةٍ يـصعب فَتحـهُ إلاَّ لِمَـنْ أغلَقَهُ.

يُنهي مهمّتهُ ويعود حاملاً على كتفهِ بعض الحطب وينـادي مـن بعيد:

– "العَشا مطوّل"؟

ثُمّ يشعل النّار وهو يعيدُ السُّؤالَ مرّةً تلو مرّة، وما أنْ أتَمَّ إشـعال النَّار وطال لهيبُها حتّى أقبلَتْ ابنته نايفة وهي تحملُ صـحنًا واحـدًا وتضعهُ أمام أبيها فينظرُ إلى الصّحنِ مُبتسِمًا ويقول:

– خُبَّيـْــــزة ؟

عادت نايفة مرّةً أخرى وهـي تحمـلُ الخُبـز وبرتقالـة، وجلـسَتْ مُتَّكِئَةً على رُكبة أبيها وبدأت تقشّرُ البرتقالة ثُمَّ تعصُر قِشرها باتّجـاه النّار فأثارها فضول الأطفال عن سبب خـروج اللّهـب المُلـوّن مـا بـين الأخضر والبنفسَجيّ، فترفـعُ وجههـا الـصَّغير إلى وجـه أبيهـا وهــي

تَرقُبُ مَسار لُقمَتهِ من الصّحن إلى فَمه وتسأله:

– لماذا هذا اللون يا أبي؟

فيَستعجلُ عيد لقمتهُ وتَزداد وَتيرة المَضغِ كأنّه يُعِدُّ جوابًا لابنته، وبعد الابتلاع يقول لها:

– "اللّعب في النّار حرام".

هو لا يملك جوابًا أو تفسيرًا لسُؤال ابنته، وكذلك لا يريد أن يبقيها دون أجابة، وبهذا الجواب وضع حدًّا لإعادة السُّؤال مرّةً أخرى وَبَرّأ نفسه من العَجز عن الرّد، وما هي إلاَّ دقائق حتى قال لها:

– "وَدّي الصّحن لأمكي".

لم يغب عن بال عيد أنّ جارَهُ وعدهُ بالمجيء الليلة للتّعليلة عنده، وهذا الجار يُعدُّ من مُتابعي الأخبار والأحداث في العالم ومصدر معلومات مهمّ ولديه تحليلات سياسيّة واستنتاجات من أقوال الحُكّام وماذا قالوا في لقاءاتهم السِّرّيّة، وماذا سيفعلون وماذا يُخطّطون، ومَنْ اتّفق مع مَنْ، ودائمًا يتكهّنُ الحرب في نهاية حديثه، كما أنّهُ مطّلعٌ على كلّ صغيرة وكبيرة على الصّعيد المَحلّي فيما يخص التّأمين الوطني ومُستجدّاته وأسعار الحلال والقَشّ.

نبحَ الكلبُ نَبحةً واحدةً ثُمّ وقفَ يَتَمَطَّى كالذي يعتذرُ عن فِعلتهِ،

كيف لا وهو يعرف القادم معرفةً لا يخطئها إلاَّ سهوًا.

نعم، هو جارُ عيد الحج "أبـو سـالم"، ومـن بعيـدٍ يُـسمَعُ دَبيـبُ بُـسطارهِ المُتنـاغِم مـع نَحنَحاتـهِ المُتواصـلة، وبعـد أن طـرح الـسّلام وتَموضَعَ بينَ "المَراكي"، بدا كأنّهُ تَحَصَّنَ جيّـدًا عـن الـبرد، "فَـرْوَة" وتحتهـا "الـدِّيبون" وعـدد مـن "الجَـرَازي" ومنـديلٌ أبـيض وفوقـه "الشّماغ" وعليه قُبّعة كبيرة من الصُّوف.

وتبدأ التّعليلة....

رمضانيّات من زمن فات

بعدَ العَصرِ عادَةً يصدرُ القرارُ على نوع الطّعام الذي سيُقَدَّمُ في وجبة الإفطار (الفُطرة) ومكوّناتها، فالأمر لا يتطلّبُ الكثير من التَّفكير والتَّحضير، أقربُها بعض النّواشف والبقوليّات في صَحنينِ أو ثلاثة، وأبعدُها الذّهاب إلى "المِقْثاة"، "السَّدِّة" (المَزرَعة) والعودة بما تَيسّرَ من قُرونِ البامية والكوسا، والبندورة التي غلب احمرارها على اخضرارها وأشياء أخرى.

ثُمَّ تفوحُ بعد ذلكَ رائحةُ خُبزِ الصَّاج ويبلغُ مَداها أقصَى ما قد تحملهُ نسائم ما قبل الغُروب، حتّى إلى أنوفِ الصِّغارِ المُنهَمِكينَ في لُعبة "الحُشَيّرَة"، ليَهدأ غُبارهم ويعودون مِتَفَرّقين إلى بيوتهم وهذا يعني قُرب حلول "الفُطرة"، أي تلك المرحلة التي يُحَضَّرُ فيها شَراب "القَمَرْدين" اللذيذ في إبريق له مكانة كالقَداسة لا تمتّدُّ نحوه إلاَّ أيادي الكِبار الصّائمينَ أوَّلاً.

لا ضجيج ولا نداءات ولا خُصوماتٍ، حالةٌ من التَّرَقُّب والانتظار، وصحنٌ فيه ماء وُضِعَ جانبًا لِيَبرُد أكثر مع نسيم المساء، وفجأةً يعلو صوت "أبو جرير" من المذياع مُبَشّرًا بصوتهِ النابض بمَخارجِ الحُروف ودُعائهِ المعهود بقُرب موعد أذان المغرب والإفطار، فيَسودُ صمتٌ

كالرَّهْبَة إلى أن يقول المُؤذّنُ:

– حَيَّ على الفَلاَح.

صومًا مقبولاً وإفطارًا شَهيًّا.

هُنا لندن

وذات مساء ...

بعدَ أن أشعلَ النّارَ ليُعِدَّ القهوة في "الشّق"، فيما رياحُ الصّيفِ تقتحمُ المكان وتأخذُ دُخانَ النّارِ سريعًا من قلبِ الخيمةِ مُبقيةً ألْسِنَة اللّهَب تتراقَصُ في وجه صاحبنا وهو يُقَلِّبُ وجهَهُ المُحتَرِقِ من شمسِ الحَصادِ يمينًا وشمالاً.

ما زالَ يُرتّبُ العيدانَ الهزيلة على ظهر جُذَيْعٍ غَليظٍ تحتهُ كَوْمة من "الجَلَّة" المُتَأجّج لَهيبها، حتّى فَطِنَ أنّ موعد برنامجه المُفضّل قد أزِفَ أو رُبَّما بدأ، فالْتَفَتَ خلفهُ إلى صُندوقٍ خشبيٍّ صغير قديم،

صندوق "عِدّة القهوة" الذي بَدا كأنّه بَدَّلَ لونهُ عِدّة مرّاتٍ منذُ حرب " الأيّام السِّتّة" وفي خفّةِ يَدِ ساحرٍ ماهر أخرَجَ جهاز الرّاديو الصّغير وأدارَ المفتاح فنطق المُذيع :

– هُنا لندن ...

إذاعةُ القسم العربيّ من هيئةِ الإذاعة البريطانيّة تُقدّم ....

بالنّسبة لصاحبنا لا يهمُّ أيّ المواضيع تُطرَح فكُلّها عالَميّة ولا تعني مُحيطه القريب شيئًا.

ويبدأ التّحليل الإخباري ويتْبَعهُ اهتمامُ الرَّجُل بكُلّ ما يَردُ فيه، وَيَهُزّ برأسهِ إيجابًا عند سماعهِ لإسمِ شخصيةٍ أو رئيسٍ أو ملكٍ يعرفهُ، ويتوقّفُ عن هَزِّ "المِحْماسة" حين يُرَحِّبُ المُذيعُ بضيفٍ جديدٍ من الخرطوم أو الدّار البيضاء أو عَمّان، ثُمَّ يواصلُ الإصغاء مُبَدّلاً جلستهُ بين حينٍ وآخر ورائحةُ القهوةِ المُحَمَّصة قطعتْ مسافةَ مَسير ساعة وأكثر.

رمضانيّات

وما أن هَبَّتْ نَسائمُ ما بعدَ العَصرِ حتَّى نهضَ "عيد" من نَومهِ عاصِبَ الرَّأسِ مُكَدَّر المزاجِ مُتنَفِّخ العَينينِ عاقد الحاجِبَين، تعلو جبهتَهُ خطوطٌ عَميقةٌ مُظلِمَةٌ كالتي تَدُلُّ على صُعوبةِ التَّضاريس التي اجتازَها في نَومَتهِ الهانئة في "الشِّقّ"، حيثُ دَأبَتْ زوجتهُ على تَوفيرِ الهُدوء فطردتِ الدَّجاجات وَربَطَتِ "الجِدي الرُّظوعة" وشَمَّرَتِ "الرّواق" لِيَنعمَ بالهَواءِ الباردِ في يومٍ رمضانيٍّ آخَر.

جلسَ عيد في مكانه لِعدّةِ دَقائقَ مُحَدّقًا في أوّلِ ما وقعَ عليه نظرهُ دون حراكٍ، ثُمَّ تَثاءَبَ عدّة مرّاتٍ مُتَتاليةٍ بدَتْ كأنّها ما بين الصِّياح والعَويلِ أتَمَّها بتَنهيدةٍ طويلةٍ، وما زالَ يَحُكُّ مُؤخِّرةِ رأسهِ كالذي يَنْتَهزُ الفُرصَةَ لِلوقوفِ بغتَةً.

وقفَ "عيد" وهو يُواصِلُ التَّثاؤُبَ بنَغمةٍ وَوتيرةٍ أقَلُّ من سابقاتها، يُتبعُها ببعضِ الهَمهَمات المَضوغَةِ جيّدًا، ومع كُلّ خطوةٍ خطاها نحو برميلِ الماءِ سُمِعَت فرقعات واضحة من عظامهِ وآخرها من رُكبتهِ حين جلس مُمسكًا البرميل لِيغسِلَ وجهَهُ.

أفراح البادية

كُلُّ شيءٍ أصبح جاهزًا وعلى أكملِ وجهٍ، فقد نُصِبَتْ خيامُ الفرَح ولم يبقَ سوى الاتِّفاق على موقع حُفرة النّار، وستكون الكلمةُ الأخيرة بالطّبع لرَجُلٍ أخذ على عاتقهِ القيام بمهامِّ "القَهوجي" في هذا الفرح، بعدها يبدأ الشَّباب بفَرْشِ البُسُط الحَمراء في خَطَّيْنِ مُتوازِيَيْن تحت رقابة أحد الكِبار يُصحّحُ مسارَ واستقامة البُسُط ويُعيّنُ مكان "المراكي".

ويأتي إعلان الفرح في اللَّحظةِ التي تُطلقُ إحدى النِّساء زغرودةً طويلةً إيذانًا ببدءِ الفرح والانطلاقة الرّسميّة، وعادةً ما تكون قبل الظهر، وما هي إلاَّ دقائق حتى تملأ الأجواء رائحة القهوة فيما يقومُ بعض الرّجال بإجراء جَولاتِ تفقُّدٍ لِحبال الخيمة وأوتادها كَيْلا يتعثَّرَ بها أحد.

اللّيلةُ الأولى هي ليلة "عشاء البيوت" حيث تُقامُ وليمة كبيرة يأتي إليها الأقارب والجيران وكلّ مَن سمع بالفرح من قريب أو بعيد، وقد يأتي بعضهم بـ" القَوَد" (شاة هديّة) في هذه الليلة فيما يؤجّل البعض "القَوَد" إلى يوم الجمعة أو السبت.

وعلى الأغلب يُفتَقَدُ العريسُ من الليلة الأولى وقد يظهر ليلاً في ساعات السّمَر مع خِلاّنه خَجِلاً يتجنّبُ الكِبار وَلَمَزاتهم، وفي ليلة الزّفاف التي تصادف عادةً مساء الجُمعة يرتدي العريس (العِدَّة العربيّة) أي الزِّيّ البَدويّ الكامل ويتزيَّن "بالشِّبريّة" ويحضر العشاء وهذه هي الليلة الكبرى للفرح ففيها يُقام السَّامر والتّعاليل وخلالها جرت العادة أن يقوم أحد المُقَرّبين للعريس كالعمّ أو الخال أو حتّى الأب بتوصيل العريس إلى "البِرْزة" (خيمة العروسَين) البعيدة نسبيًا عن خَيْمَتَي الفرح فيما يطلقُ أحدهم عدّة طلقاتٍ في الهواء إشعارًا بالدُّخول (المُرُوق).

"ويجعلها مباركة".

المحتويات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الإهداء	٠٥	طبول الحرب	٦٤
تقديم	٠٧	من مذكرات الراعي	٦٥
نايفة في المدرسة	٠٩	الحب اليتيم	٦٨
سلمى	٢٤	تعويلة	٧١
على سفر	٤٧	مواسم ومناسبات	٧٤
الدحول	٥٠	غبار من طرف واحد	٧٥
أفراح وليال ملاح	٥٢	غزل البوادي	٧٦
ليلة شتاء باردة	٥٤	يوميات ناطور	٧٨
إبداعات أطفال البادية	٥٧	عيد المشاغب	٨٠
الطريق إلى غزة	٥٩	سجعيات من زمن فات	٨٢
بين الأمل والانتظار	٦١	سندريلات من زمن فات	٨٣
إلى المدينة	٦٣	تعاليل العيد	٨٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
ثرثارة لا تمل ولا تكل	٨٦	السروال المخيف	١١٦
ختم الشيخة	٨٨	نايفة والبرتقال	١١٧
من داخل خيمة النساء	٩٠	عنترة في ديارنا	١١٩
الداء والدواء	٩٢	عبلة في ديارنا	١٢١
المغارة المسكونة	٩٤	الصديق الوفي	١٢٣
في البريد	٩٦	حطيط	١٢٥
الطفل الأجير	٩٨	تحت الصفيح	١٢٧
اعترافات ناجية	٩٩	الصيف والحصاد	١٢٨
مسافر إلى بئر السبع	١٠١	حكاية حصّاد	١٢٩
باب الحديد	١٠٤	معلمة من المدينة	١٣٠
البدوي وشم المطرات	١٠٧	بين الحلم والحقيقة	١٣٤
شقوق في الذاكرة	١١٠	اللاهثون خلف السراب	١٣٦
الانتظار المحرج	١١١	السمراء والشمس	١٣٨
أفراح وليال ملاح	١١٢	حكايات الكبار	١٣٩
نهايات دامية	١١٥	أتذكر يا هذا	١٤١

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
صيف وسمر	١٤٢	تعاليل	١٥١
مشاعر قط	١٤٣	رمضانيات من زمن فات	١٥٤
هدايا وتقاليد	١٤٥	هنا لندن	١٥٥
كما تدين تدان	١٤٦	رمضانيات	١٥٧
نظرات وانتظار	١٤٧	أفراح البادية	١٥٨
من رفوف الذاكرة	١٤٨	المحتويات	١٦٠